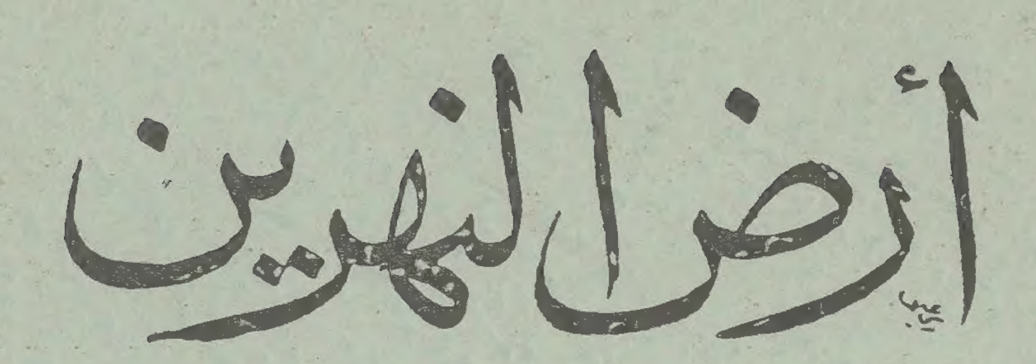




تأليف

ادوِن بِفَن



نقله من الانكليزية الى العربية

الأب انستاس ماري الكرملي

ساعده

الأب لويس مرتين الكرملي



أخرجه ووضع فهارسه

حكمت توماشي



مطبعة المعارف ـ بغداد

١٩٦١





تأليف

ادوِن بِقَن

نقله من الانكليزية الى العربية

الأب انستاس ماري الكرملي

ساعده

الأب لويس مرتين الكرملي

أخرجه ووضع فهارسه

حكمت توماشي



مطبعة المعارف ـ بغداد

١٩٦١

# كلمة الناشر

اذا أنعمنا النظر فى الآثار ورجعنا بفكرنا الى العصور الماضية ، ألفينا شعوباً قد بلغت من المجد ذروة سامية ، انتشرت حضاراتها فى وادى الرافدين ، فاقتبست الامم الاخرى معالم شتى من مدنية تلك الاقوام .

بيد أن شمس تلك المدنية آذنت بالمغيب حين ضعف حال تلك الشعوب واضمحلت حتى انقرضت واختفى أمرها ردحاً طويلاً من الزمن .

وفى القرنين الماضيين هبّ الآثاريون والمنقبون الى البحث عن آثارها المختفية بين اطلال المدن الدارسة ، فكشفوا عن صفحات لامعات من ذلك التراث العراقى القديم .

والكتاب الذى نضعه بين أيدي القراء ، يكشف لنا عن لمحة من تاريخ تلك الشعوب وحضاراتها التى ازدهرت فى « ارض النهرين » دجلة والفرات .

وكان المغفور له العلامة الأب انستاس مارى الكرملي المتوفى فى ٧ كانون الثانى ١٩٤٧ ، قد نقل هذا الكتاب الى العربية فى شهر آب سنة ١٩١٨ ، وساعده فى ذلك الاب لويس مرتين الكرملي . ونظراً الى أهمية الكتاب ، وقلة المصادر الموضوعة بالعربية فى هذا الشأن ، رغبت فى نشر هذه الترجمة التى لم يتهيأ نشرها للأب انستاس فى أثناء حياته .

ومن هذه الترجمة العربية نسختان خطيتان فى خزانة دار الآثار

بغداد وهما برقم ٩٦١ ، ١٥١٩ ، وقـد اعتمدت على كلتيهما فى اخـراج طبعة هذا الكتاب .

ولا شك فى أن مجال التعليق على هذا الكتاب متسع ولا سيما بعـد تلك المكتشفات الأثرية الحديثة ، ولكن مثل هذه التعليقات ستطغي على حجم الكتاب وتضيع معالمه الاصلية . لذلك آثرت اخراج الكتاب كما هو .

وسيلمس المطالع لهذه الترجمة العربية ، بلاغـة اسلوبها ورصانة تعبيرها . كيف لا ، وهى أثر من آثار ذلك العلامة الكبير الذى أفنى حياته فى خدمة اللغة العربية والحفاظ عليها ؟

**حكمت توماشي**

**من امناء مكتبة المتحف العراقى**

# المقـــدمة

ليست غاية هذا الكتيب أن يُتحَفَ القارىء بشيء جديد ، كمـا ليست غايته أن يُرجَعَ اليه بمنزلة كتاب نصوص أو مقالة معلمة ( دائرة معارف ) ، بل غايتي أن أدون كتابةً ما يفعله رجل في مخاطبة رجل آخر اذا ألقى عليه سؤالاً في مطاوي الكلام وهو :

« ما كانت الجزيرة في الماضي ؟ فلقد اشتركت الآن البلاد التى نسميها خطأ الجزيرة والبلاد المعقودة بناصيتها ــ ارمنيـة والاناضول وفلسطين ، وبلاد العجم ، بمصالح تُهم كل انسان ويتحـدث بها اليوم ، وكلها ترجع الى مسائل تعود الى السياسة التى قد اخذ باطرافها • فهذا ما حداني الى ان اطرِفَ القراء بذكرى جديدة هى عجالة تُطلعهم على ما كانت تعني هذه الالفاظ فى الماضي •فان غابرها قد بدا للعالم كله مدة عدة قرون فاذا أراد القارىء ان تتجلى حوادثها الماضية امام فكره فى ساعةٍ واحدة أو ما يقرب منها فلابد من أن يصطدم بأحد أمرين : اما أن يقف امام تفاصيل اخبـار ناشفة من كل لذة لا يحصى عددها مع سماع اعلام لم تألفها آذانه ، واما ان يهمل كثيراً من الاحداث الجوهرية الضرورية لتصوير صور التاريخ بجميع مناظرها •

اما أنا فحاولت أن ابين ما يهم القارىء من الامور الرئيسية واهملت

التفاصيل التى لا تلزم اعظم لــــزوم لادراك الكل • ولم نذكر من اعلام الناس والمواضع اكثر مما ظنناه اللازم اللازب • ولما كتبت ما كتبت ظننتُني اسرد اموراً لرجل ليس له اطلاع خصوصي على التاريخ القديم بل مجمل علمه قائم على معرفة عامة تتعلق ببلاد اليونان وروميه وببعض اعلام مذكورة فى الكتاب الكريم •

# رسـوخ الشـرق

لم يصدق كلام مأثور فتناقله النـاس وتمكن من الافكار والصدور ، مثل هذا الكلام « رسوخ الشرق » ومما يأتي بسطه يتضح كيف ان هـذه الحقيقة صيرت هذا الأمر مما لا ينكر ، نعم ان افقر طبقة من طبقات النـاس في جميع البلاد ـ من طبقات اولئك الناس الذين يقوم معظم حياتهم على تلبية أمس حاجاتهم الاولى باستخراج طعامهم من الارض أو من المـاء محافظين على حرارة اجسامهم ويبوستها ، يبقون بنوع عجيب على وحـدة شؤونهم جيلاً بعد جيل ( ولعله يجب أن يقال « بقوا » لان التمدن الحديث يتسرب الى الناس حيثما كانوا تسرباً اعظم مما كان يتسرب اليهم سابقاً ـ ومما يساعد علـى ذلك التهذيب الجـاري والتنقلات التى تتم على ظهـور السيارات ورؤية الصور المتحركة ـ كل هذا يؤثر على حياة افقر الناس في ديار اوربة كلها على صورة لم يجر مثلها في سابق العهد ابداً ) وقد سبب معظم المميزات المختلفة التى تميز فلاحي الارض وصيادي السمك في البحر والنهر والغدير في البـلاد المختلفة اسباب طبيعية مهيأة في تلك الديار ثابتة فيها .

نعم ان المسافر الذى يتجول في ديار مصر اليـوم يرى الفلاحين يستعملون تلك الادوات البسيطة التى كان يستعملها آباؤه قبل ثلاثة آلاف سنة ويرى المسافر في بابل [1] على الشطوط والانهـار اطوافاً ( اكلاكاً )

---

(١) من العادة في الصحف الانكليزية استعمال كلمة جزيرة ( أو بين النهرين أى ميسوپو تاميا ) للدلالة على ارض الغريل بين أسفل الفرات ودجلة الى بغداد عاصمة تلك الديار ، غير أن ذلك لا يصدق على ما كان يريده الاولون بهذا اللفظ . فالجزيرة عند اليونان والرومان هى القطر =

كالأطواف التى وصفهـا هيرودتس • واذا كلم اهل تلك البلاد يرى انهم يعتبرون العالم فى الخارج على حد ما جاءت مُثله فى عـدة مواطن من التوراة • والمسافر عند عودته الى بلاده يقول : الشرق راسخ فى مقرّه ، الشرق لا يتغير ! واذا قال هذا ينسى ان حياة الحارث والصائد والعامل بيديه هي التى قوّمت طبقة الناس التى هى تحت الطبقة التى غيّرها التمدن والتى اساس حياتها الفكر والمؤلفات والقصائد والتصوير والنقش والنحت واقامة المباني العظيمة والاشغال العـامة التى تظهر محاسن الخطط ان كانت تلك الخطط ترجع الى الشرائع أو ترجع الى الحكومة • والحال ان ما أتمـه الانسان فى هذا المعنى هو الذى ميَّز الحضارات السابقة وبين فوائدهـا • وقد يصادف المسافر فى ايطالية فى بعض ديارها المنزوية عن سائر انحـاء المملكة أو لعله كان يستطيع أن يصادف قبـل بضع سنوات عاملاً يعمـل بمحراث من تلك المحاريث التى انشأها الاولون على ما اوحته اليهم فطرتهم الاولى وقد وصفها فرجيل فى اشعاره • ومن رأى هـذا المثال وقال ان « الغرب باقٍ فى رسوخه » فقد اخطأ ولا سيما اذا قال ان التمدن الرومانى القديم الذى قام على مثل هذا الاساس الذى يُرى فى أرياف ايطاليـة لا يستحق أن ينظم فى عداد التمدن فالفرق بين الشرق وايطالية هو أن فى ايطالية تقع عينا المسافر على ما يشغلهما من مظاهر تمدنٍ حيٍ بعـدُ ولا يزال يسير فى وجهه والعامل بموجبه هو ابن الروماني القـديم ولهـذا لا خوف من أن يُرى ان يفتكر ان البقاء النسبي بقاء حياة القروي خلال

---

= الواقع فى الشمال ( وفى العربية يقال لها الجزيرة ) وهى الى جبـال ارمنية أقرب وهى القطر الذى تتموج فيه خضروات السهول واما الديار الجنوبية التى تتقاتل فيهـا جيوشنا فيسمونها « ديار بابل أو بابليونية » واسمها بالعربى « العراق » ونريد بالجزيرة فى هـذا الكتاب البلاد التى ذكرناها بدون أن يكون فى ديار بابل أو العراق •

العصور يشير الى أن الاشياء فى ايطالية هى كما كانت سابقاً . لكن لو كان تمدننا الحديث فني وبقى زراع ارض ايطالية يُتمِوُنَ سيرهم فى مناهجهم القديمة فلعل حينئذ كان يستطيع المسافر الذى يرى المحاريث القديمة مصورة على الآنية أو محفورة على الحجارة ويرى ما يماثلها مستعملة ايضا الى وقته فيتصور آنئذ عن الغرب تصاوير بسيطة على ما عَنَّت له فى خاطره عند نظره الى الشرق . اما فى الشرق فان الحضارات القديمة اضمحلت كل الاضمحلال وما يرى منها الآن المسافرون فى ديارها ليس الا بقايا تافهة أو رذالتها ونفايتها ولهذا لا يفهم دائماً الفرق بين الشرق الذى يراه والشرق الذى كان سابقاً فيرى على دجلة الاطواف التى كانت تستعمل قبل هذا العهد بالوف من السنين فيعود الى وطنه وهو يقول : الشرق لا يتغير !

## تقدم الانسان

لا نعرف مصير حياة الانسان على هذه السيارة من النظام الشمسي ولا نعلم الى أين متجهها أو ما يكون معنى تاريخها الاخير لاننا لسنا الا جزءاً من الطريق التى تمر به . وليس هنا محل البحث اذا كان التاريخ يتسم بسمة الرقي الى النهاية كما يظهر ببعض المتفائلين كأنه من باب الأمر المسلم به أو اذا يأتي زمان تكون فيه الحركة الرئيسة الجارية على هذه الارض تأخذ بالنزول والهوي بدلاً من الصعود والرقي الا اننا يمكننا أن نقول اعتماداً على ما ظهر من الحركة الى الآن اننا اذا اعتبرناها بوجه الاجمال بغض النظر عن بعض التوقفات الجزئية والمحلية أو بعض الرجوع الى الوراء فى امور زهيدة : ان الحركة آخذة بالرقى . ويجب أن يحتفظ بهذا الرأى اذا أراد الانسان أن يدفع عنه عوادي الجدال . وهناك اناس يشكون اذا كان معظم السعادة موجود بين ظهراني المتمدنين أو بين ظهراني العصر الحجري .

الا ان لدينا مرأى نشاهد عليه علامة الرقي بدون شك وهو - معرفة المادة والتسلط عليها بواسطة عقل الانسان .

وهذا الرقي كان يتدرج مرحلة بعد مرحلة ولم يكن سيراً متصلاً وكان اذا بلغ مرحلة من تلك المراحل يظن ان الحركة السائرة الى الامام تقف موقتاً فى نقطة . والرقي فى المعارف والتسلط على احكام الطبيعة سارا كفرسي رهان فى ميدان واسع وقد ساعدهما فى أمرهما وسائل النقل والتنقل لأن ما يعمله الرجل الواحد بنفسه هو قليل اما اذا تضافرت الايدى وتوفرت على الشغل الذى غايته واحدة فالنتيجة المطلوبة تكون اوفى بالمقصود . ففي بدء الأمر كان الانسان يبادل اخاه افكاره بالكلام والاشارة فقط . ثم انتقل مرحلة فاخترع الكتابة ثم انتقل الى مرحلة اخرى فكانت الطباعة ثم صار الى هذه المرحلة التى توفرت له فيها وسائل النقل والمشاركة فى كل شىء بواسطة البخار والكهرباء وروح زيت الحجر . ويجب أن يلاحظ ان المنازل التى نزلها الرقي من مدة الى مدة اخرى كانت تَقْصُر مسافةً كلما سار ذلك الرقي فى وجهه . الا انه طالت المدة التى لم يكن لابناء البشر فيها وسائل للتعبير عن افكارهم سوى الكلام والاشارات طولاً لا يقدر من مئات السنين . ولو أمكن لأحد الزوار الخالدين من زيارة عالمنا من الف سنة الى الف سنة لكان ظن حينما رأى هذا المرء الذى كان يعيش فى المغاور والغابات ويحارب الحيوانات بالظُرّان أو باسلحة من الحجر تمكن من أن يُعَبِر عن رغائبه لاخوانه ويوقفهم على ما يجول بخاطره من الافكار بواسطة الفاظ مقطعة قائمة على اهجئة لقال انه بلغ اقصى المدى من الارتقاء والتبسط . ثم دعه يزور هذا العالم بعد الف سنة اخرى وخلّ الشمس تقطع فلكها فى السماء بقدر ما تشاء وهى تشرق على الجبال والغابات ، على البر والبحر ، فماذا كان يرى ؟ كان يرى ان الامور لم تتغير

والانسان بقي كما كان والخلائق التى تقلبت على وجه هذه الغبراء لـــم تستحدث شيئا وهى تطوي بساط أيامها جماعاتٍ مختلطة أو جماعات متنقلة فى البوادى ، والقوم يخلف القوم بدون أن يخلف اثراً يدل على مروره بهذه الارض • قل مضت الف سنة اخرى واتى زائرنا الخالد للمرة الثالثة فهل يرى تبديلاً وتغييراً ؟ كلا بل انه لا يرى شيئاً مذكوراً وهـــل تبقى الامور على حالتها الاولى الف سنة بعد الف سنة ؟ كلا فلقد وُجدَ أقوام من البشر تغيروا ومنهم من بقوا على حالتهم الفطرية حتى الى أيامنا هذه • فان التسمانيين الذينِ اكتُشِفوا فىالقرن الثامن عشر كانوا الى ذلك العهد فى طور الحجر الاول ولما كان الناس قد تقدموا فوصلوا الطور الثانى من النشوء فقد كان تقدماً عاماً لكن كان قد سبقهم اليــه آخرون من جماعـات اخرى •

ثم جاءت المنزلة التالية فكانت متميزة باختراع الكتابة وجميع الحضارات التى نسميها حضارات « العالم القديم » قامت أسسها على الكتابة • والكتابة هى التى وسعت نطاق المواصلات ولم تتوسع تلك المواصلات بين النـــاس المتباعدين فقط مما جعل تعاون كثيرين من أهون الهينات ، بل كانت وسيلة للجمع بين قوم وقوم بمبادلة الافكار والرسائل والكتب • ويمكننا أن نقول ان هذه المدة امتدت الى جميع الحضارات القديمة والى آخـــــر العصور المتوسطة أى انها دامت زهاء ستة آلاف وخمسمائة سنة منذ اختراع الكتابة فى مصر أى نحو ٥٠٠٠ سنة قبل المسيح الى النهضة الاوربية التى كانت معها فى العالم الجديد أى ٦٥٠٠ سنة بازاء تتابع الوف السنين التى بقيت فيها البشرية فى طورها الاول •

ان تمدن العالـم الجـــديد « الغربى » الاوربى ، منـذ النهضـة ، ما كان ليقع لولا توفر الكتب والجرائد بواسطة المطبعة وهذا العالم الجديد لم

يقف ابداً اذا لم تمض ثلاثة قرون ونصف فى التاريخ البشرى الا ورأينا فى مطاويها تقدماً متصلاً فى المعارف وفى التسلط على الطبيعة المادية فكان التغير فيها سريعاً حثيثاً جداً فانه لم يكن بين اختراع المطبعة واختراع البخار والكهرباء التى جعلت فى العالم ضرباً من النظام العصبي الوحيد الا نحو ٤٠٠ سنة أو أقل حتى ان الانسان ليسأل نفسه هل من الممكن أن يسرع هذه السرعة ليتم شرط التقدم والرقي ، وهل يُرغب فى مثل هذه السرعة ليحتفظ بما وصل اليه العمران من النتيجة ؟

## عشرة آلاف سنة قبل المسيح

افرض اننا نستطيع أن نركب طيارة يمكننا من أن نرجع الى وراء الازمان كما تمكننا من أن نجتاز المسافات البعيدة بسرعة فنكون فى عصر يسبق الميلاد المسيحي بعشرة آلاف سنة فاذا حلقنا فى سماء اوربا ونظرنا الى ما تحتنا متنقلين من قطر الى قطر ومن موقع الى موقع فاننا لا نرى الا غابات فنوآء وجبال وعرة ومستنقعات واسعة وفى المواطن التى تُبنى فيها بعد ذلك لندن وباريس ورومة لا نرى بالنظر الى الانسان سوى اناس قذرين قد ارتدوا برداء اتخذوه من جلود الاوابد وهم يقيمون فى فترة كالحيوانات الناطقة طالبا رزقه واذا عبرنا بحر الروم وجئنا الزاوية الشمالية الشرقية من افريقيا نرى النهر الذى نسميه الآن النيل يُجري مياهه نحو الشمال واناساً سود الالوان وليسوا ارقى من اخوانهم الاوربيين فى سلم الحضارة اولئك المرتدين بجلود الاوابد •

اما هؤلاء السود فانهم عُري" وقد اختبأوا فى آجام البردي أو قد ركبوا مراكب على ما كانت فى نشوئها يجذفون بها على وجه الماء طلباً لصيد طيرها المائى أو سمكها • واذا اوغلنا فى الشرق وقطعنا ارضاً هى فلوات وصحارٍ نصل بلاداً يجري فيها نهران كبيران ينحدران من جبال ارمينية

ويدفعان مياههما الى الجنوب وهما يسيران جنباً لجنب على بُعــد ٢٥ ميلاً ويدخلان ارضاً كلها غـرِيْل ـ ارضاً واسعة ومنبسطة بدون تلال تطوف بها كما فى وادى النيل ، ارضاً كانت فى بدء امرهـا يابسة قفــرة يتلوها مستنقعات بعيدة المدى وعلى ضفف ذينك النهرين بعض شجيرات متفرقـة وفى الآخر ترى فلوات قد تراكمت فيها الرمال ولا ترى فيها سوى البوار والدمار • ترى مياه هذين النهرين ترتفع فى اوائل الربيع وقد يخرجان عن مجرييهما المألوفين فيكثر الوحل فى ممرهما • ويفضي جانب من مياههما الى مستنقعات راكدة ثم تجد لها مهرباً أو منسوباً الى أن تدفع فى فرع من فروع الاوقيانوس وهو ما نسميه خليج فارس • وفى جميع المواطن التى تصلها المياه ينمو الغَرَب ويجود النخل فينشأ فيها غابات واسعة وهــذه الارض شديدة الحرارة فى الصيف • وتولد المستنقعات بعوضاً وبرغشاً من كل نوع بمقادير لا تقدر وفى هذه المواطن كما فى وادى النيل يرى الناس عائشين فى اكواخ حقيرة قد ابتنوها على الشواطىء ويركبون سفنهم سائرين بها فى آجام القصب أو جانبن الرطب •

## نشــوء مصر

واذا رحلنا مثل هذه الرحلة مرة ثانية بعد خمسة آلاف سنة ـ أى فى نحو ٥٠٠ سنة قبل المسيح لا نرى تغيراً عظيماً فى حوادث اوربا ولعلنـا لا نجد تغيراً فى ديار بين النهرين الا اننا نقع على شىء حديث جديد قــد أخذ بالنشوء فى وادى النيل بخصوص تهــذيب الخلق ، ذلك ان الناس هناك ـ ولعلهم ممن يرجعون الى سلالة وجدت طريقاً فى البلاد قادمة من الجنوب منذ أن زرناها المرة الأخيرة ـ قد تعلموا أن يبنوا بيوتاً من طــين النهر بعد أن يكونوا قد مزجـوه بهشيم التبن وقطعوه لبنــاً وأيبسوه فى الشمس ، قد تعلموا أن يزرعوا فى الارض الرطبة الغنية المادة الغريليــة

الجوهر وأن يحصدوا الحب الذى ينشأ بعد بذاره ليتخذوا منه خبزاً ٠ قد تعلموا ان النحاس الذى وجدوه على اطراف التلال اذا مزج بالقصدير يصلح لان يكون أحسن سلاح واداة للشغل من الاسلحة والادوات المتخذة من الحجارة ، قد تعلموا بواسطة هذه الآلات الجديدة أن يحسنوا قطع حجارة كبيرة كانوا يأتون بها من الهضاب ليبنوا بها أو لينقشوا عليها ما يريدون حفظه ونقله الى الاجيال المقبلة بعد أن اصطلحوا لهذه الغاية على علامات اخترعوها ٠ وهذه العلامات المحفورة هى من ابدع الاكتشافات اذ بعد أن مضى عليها الوف من السنين تُوقفنا على غوابر التاريخ فهي بدء الكتابة ٠ والناس الذين نراهم فى يوم ذلك العهد يبنون فى وادى النيل بيوتهم بالآجر قد تكون هذه البيوت متجاورة أو متباعدة قليلاً ومن اجتماع هذه الدور على طول النهر تنشأ المدنَ ٠ ولكل مدينة ارض تمتد فى الخارج من ضفة النيل الواحدة الى الضفة الاخرى حتى تتصل بارض المدينة الاخرى ولكل مدينة حاكم ومعبود أو معبودة قد خص به حيوان يعتبر مقدساً وقد بنى له هيكل فى وسط المدينة أو قريباً منها ٠ وقد نرى مدينة تحارب مدينة ولا يحكم حاكم واحد على الوادى كله حيث تنقطع التلال عن هذه العدوة أو تلك العدوة فالنهر يمتد بمدالثه الى البحر والارض التى يسقيها رحبة الاكناف بعيدة الفجاج والفجوات ينشأ فيها مستنقعات ينبت فيها البردي البري عفواً ٠

ولنعد بعد رحلتنا الاولى بالفي سنة أى قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة فاننا نرى التمدن قد تقدم تقدماً يذكر ٠ نرى اناساً قد أقاموا فى هذه المدينة أو تلك الحاضرة فتمكنوا فيها وقويت شوكتهم أو خدمهم السعد فلم يكتفوا باخضاع مدينتهم فقط بل اخضعوا لامرهم مدناً كثيرة متجاوة ٠ فتجمع خلق كثير يقودهم الملوك للتعاون على الحرب أو للتضافر على تشييد الابنية ٠

وفى الآخر صفا الجو لواحد منهم واصبح رأس البــلاد كلها الممتدة من المدائن الى تخوم بلاد القوم الموجودين فى أعالي النيل وهى بلاد يسكنهـا أناس سود • فأصبح ملوك أعالي البلاد وأسافلها اصحاب الامر والنهي فيها وفى ايديهم من الناس والمواد ما لم يجتمع مثله سابقاً لواحـــد من البشر فتيسر لهم أن يقيموا مباني عظيمة من الحجارة بمنزلة قبـــور لهم أو معالم ذكرى • وبعـــد بضع مئات من السنين أو نحو ذلك من الوقت بنى الملك خوفو الهرم الذى كان فى بدء القرن التاسع عشر من تاريخنا أعلى بناء أقامه الانسان على وجه الارض وكتابته التى رأيناها قبل نحو ٥٠٠٠ سنة ق• م• كانت قد خطّت فى ذلك الزمن وفى هذا العهد لا يوجـــد فقط كتابات حفرت على الحجر فى هياكل كل موضع ومعالمه بل نجد خوص البردي قد نسج نسجاً كالكاغد ، وخُطّ عليه خطوط ورسوم ثم لُفّ كالدرج فنقل الينا معارف وافكار رجال عاشوا فى تلك العصور الخالية مع انه بيننـا وبينهم أحقاب متطاولة ومسافات شاسعة • وقد بقيت المدن بيـــد حكامها الذين يأتمرون بأمر رئيس البلاد كلهـا وينتهون بنهيه محافظين على عبادة اربابهم الخاصة بها ولعلهم كانوا يخاصمون جيرانهم الذين يختلف حيوانهم المقدس عن حيوانهم • ( ولعمري انهم ليداومون على مثل هذا العمل مدة تنوف على اربعة آلاف سنة بعد ذلك على ما ذكره لنا الهجّاء الروماني ) الا انه عند توحيد السلطة نشأ امر تنظيم الاديان المحلية المختلفة وافراغها فى قالب واحد من قوالب الافكار وجعلها ديانة عامة مصرية • واذا كان فى تمدن وادى النيل بثلاثة آلاف سنة ق• م• اعمال تدار على امور باقية فى نشوئها عند مقابلتنا أياها بأعمال تمدننا الا اننا نرانا بين ظهراني اناس يحق لهم أن يدعوا متمدنين اذا ما حللنا ربوعهم ورحابهم • والحالة التى بلغوها من تلك الحضارة قــد تعارض من بعض الوجوه بحالة حضارة جانب عظيم من سكان اوربة بعد هبوط الامبراطورية الرومانية •

# نشوء شنعار

اذا جزنا البادية العظيمة الواقعة في الشرق وجئنا ارض الفراتين نجد ثمّ ايضاً ان الانسان قد أخذ يسير الى الامام كما ان بين هذه البلاد وديار وادي النيل مشابهات كثيرة من عدة وجوه فهنا ايضا تُرى ارض غريليّة غنية تقذف بما في احشائها من الكنوز لادنى عمل حراثي يقوم به العامل وتمدّه بالمادة اللازمة لصنع الآجر ( الطاباق أو الطابوق ) وهنا ايضا ( وان كان في غرة فصل السنة ) يفيض النهران بمياههما فيخرجان من ضفتيهما ويدفقان على وجه الارض ويكون ذلك بعد أن تذوب الثلوج المتراكمة في ارمنية ، الا ان احوال الفراتين لا تشابه احوال نهر ديار مصر فماء الرافدين يجري على وجه غير مطرد اذ يفاجيء الزارع ويضره اضراراً بليغة بخلاف ماء النيل فانه يوافي البلاد بمواسم مَعلومة ومحددة ويكون قدومه الى تلك الديار سبباً لفرح الفلاح وسعادته . الفراتان يجريان دون حبالٍ من الرمال مفتوحي الواديين لغزوات البدو المبثوثين في غربيهما ولغزوات اهالي الجبال المنتشرين في الجبال القائمة في شماليهما وشرقيهما . والنيل يجري في ارض لا يلحقها الاذى ولهذا لم ترتقِ هذه البلاد الا من بعد أن تمكن أهلها من ردع جماح الطبيعة وابنائها الهمَل بخلاف النيل فان اهله تقدموا في الحضارة واوغلوا فيها قبل سكان هذه الديار لخلو واديه من تلك الموانع . ومع ذلك كله انا نرى اهالي هذه البلاد قد خطوا خطوة في الحضارة في نحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وحفروا انهراً عديدة وبنوا مدناً كثيرة بالطابوق ( الآجر ) وفي كل مدينة منها حاكم يحكمها واله يُعبد فيها خاصة ويجمع الكل حاكم عام تمتد سطوته على البلاد كلها .

واشهر المدن التي بنيت يومئذ في العراق ، أي في جنوبي الجزيرة ، هي نِپُّور ( وهي المعروفة اليوم باسم نُفَّر وكان الهها الليل يعبد في جميع

المدن ) وكيش ( وهى اليوم تل الاحيمر ) ولجش ( تلو ) واورك ( الوركاء ) وأور ( المقير ) واريدو ( ابو شهرين ) ولارسا ( سنكرة ) وغيرها ومن المدن التى كانت فى شمالي العراق ( اوپيس ) وهى اليوم ابو حمشة وعند العرب الاقدمين ( باحمشا ) • فى وادى النيل كان لجميع الاهالي لسان واحد اما هنا فى وادى الفراتين فى الارض التى تسميها التوراة ارض شنعار ( بكسر الاول ولعل القراءة الصحيحة بفتحه ) فكان فيها اقوام من سلالتين مختلفتين ولهم لغتان كل منهما تختلف عن صاحبتها • ويسمى القطر الشمالي ( اكد ) وسكانه اقوامساميو الاصل اولاد عم العرب والعبريين والفنيقيين والسريان ، طويلو اللحى سودها ومتموجوها وقد احتل القطر اجدادهم قادمين من ديار الغرب فى زمن واغل فى القدم • واما القطر الجنوبى المجاور لمصب الرافدين فاسمه شُمِر وسكانه أقوام لا رابط يربطهم بأي قوم آخر من اقوام الذين نعرفهم ، محلوقة لحاهم وشواربهم وشعور رؤوسهم كل الحلق وانوفهم بارزة كل البروز دقيقة الاطراف وشفاههم رقيقة حسنة فاى من هذين القومين كان الاول فى هذه الديار الفراتية ؟ لا يمكننا الجواب عنه الآن • وهذان القومان وان كان أحدهما يختلف كل الاختلاف عن صاحبه الا انه من الثبت الذى لا ينكر ان كلا منهما استعار من الآخر معارف شتى ، وكلاهما كان يبعث بالهدي الى آلهة البلاد مثلاً الى ( الميل ) اله نفّر • ويصور الشمريون الههم بصورة اكدية واخذ الاكديون عن الشمريين الكتابة ذلك الاختراع الذى اخترعوه فى ارض الفراتين ( كما اخترع مثله سكان النيل قبلهم ببضعة الوف من السنين ) الا أن كتابة الشمريين لا تشبه التصاوير كما تشبهها الكتابة المصرية التى يرى فيها صور اناس وحيوانات وطيور اما خط الشمريين فهو عبارة عن مجموع خطوط ذاهبة فى الطول والعرض بهيئة

مسامير أو اسافين قصيرة ومن ذلك اسمها اليوم عندنا وهو الخط المسماري أو الاسفيني •

واهل وادي الفراتين كأهل وادي النيل ينقشون الفاظهم على صفائح من الحجر وان كان الحجر عندهم اغلى واندر مما هو في وادي النيل لان الجبال التي تقطع منها هذه الحجارة هي بعيدة عن مدن العراق بخلاف المدن التي في وادي النيل فان مقاطع الحجارة قريبة منها • وسكان وادي النيل كانوا يستعملون في اشغالهم المألوفة الورق المتخذ من البردي واما سكان وادي الرافدين فكانوا يستعملون في مثل هذا المقام الطابوق ( الآجر ) والاختام والصفائح المتخذة كلها من الفخار وقد وجد من هذه الرُقم الوف والوف محفور عليها كلها انواع الافادات والانباء وكانت مدفونة تحت الارض وقد حفظت كتابتها احسن حفظ كأنها خرجت اليوم من يد عاملها وهناك الوف غيرها تنتظر أيدي الحفارين ليبرزوها الى عالم الظهور والمطالعة والاستفادة والافادة • ومن وقف على بعض ما ورد في هذه الزُبُر الحجرية والفخارية يتحقق ان السلطة كثيراً ما انتقلت من يدٍ الى يد ومن بيت الى بيت ومن قوم الى قوم ومن مدينة الى مدينة ومن الشمريين الى الساميين ومن الساميين الى الشمريين وذلك قبل المسيح بنحو ٢٨٠٠ سنة وبعدها •

وليس هنا محل لايراد اسماء الملوك الذين ملكوا في ارض شنعار قبل الوف من السنين ولا سيما لان أغلب هذه الاسماء لم تألفها آذاننا ولا تنطبق على اصول لغاتنا في هذا العهد ولابد من ايراد بعض منها لتكون بمنزلة مثالٍ لما هناك من هذه التراكيب السمجة التي نستغني عن ايراد ما بقي منها وهي نحو لوجالشاجنجور وانشاجكوشانا ولوجالكنجوبنيد ودو ونحوها

من الاسماء التى تصلح لان تتخذ للطلاسم أو لابعاد الجن والشياطين عن بني آدم والمراد من ايرادنا بعض الامور عن شنعار وارض النيل ان اهالي ذلك العصر كانوا قد جروا شوطاً بعيداً فى الحضارة وقد ابتعدوا كثيراً عن الانسان الأول • وفى ذلك العهد كانت الارض تقسم الى قطرين : قطر قد ضربت عليه سرادق الجهل بظلماته وقطر قد غرق فى نور العلوم والمعارف وهو المعروف اصحابه بالمتمدنين فمدن القطر الذى كان واغلاً فى الحضارة قد تعارض المدن الكبرى الشرقية فى عهدنا هذا بدون أن يلحقها ادنى شائبة فانك كنت ترى فى تلك المدن طرقاً طويلة ضيقة متمعّجة نشأت من حيطان البيوت العظيمة التى بنيت باللبن وكانت معاطياتهم تجرى على أحسن وجه وتكتب لاحكام امورهم الوثائق والسندات والحجج والمقاولات واوراق البيع والقرض الى غيرها • وكانت تختم بالخاتم على معجون الطين ثم تشوى فى النار لتحفظ من كل ضرر وكانت فائدة توقيع هذه الخواتم بمنزلة توقيع الاسماء أو الامضاءات فى عهدنا هذا • وزد على هذا كله انه انشىء فى عهد الملك حمورَبي دستور احكام ولعل هذا الملك قد سبق الى مثل هذا الدستور فلم يصل الينا او ان مثل ذلك الدستور كان يجرى بين الناس بالمعاطاة بدون أن يكون مدوناً على صفحات الصفائح وكان لاناس ذلك العهد درجات فى المقامات والمجالس على حد ما هى موجودة اليوم وكان « لابن انسانٍ » مقام ممتاز صرح به دستور احكام بابل وهو يختلف عن مقام « الفقراء » وكان فى ذلك العهد المماليك والعبيد كما كان يوجد رجال احرار •

وكنت اذا خرجت من البلدة ترى طرقاً واسعة والاشجار من يمينك ويسارك ، وتلك الطرق تنحدر بك انحداراً وئيداً لا تشعر به تفضي بك الى المزارع والغابات أو غيطان النخل التى تزكو من سقي الفراتين او من ماء الانهر ، لانك اذا التفت الى حيثما اردت كنت ترى الترع والجداول فى

كل جانب وقد شقت لتسقي تلك الارضين التى اصبحت كلها جنات بفضل تلك المياه • ولا جرم ان تلك الترع او الانهار لم تُشق فى وقت واحد بل هى عمل اجيال متعددة تتابعت على وجه تلك البقعة المباركة وفى بعض المواطن كانت مستنقعات عديدة عظيمة فاتخذ لها مصارف ومجارٍ لكي لاتبقى فى مواطنها وتفسد الهواء فانتفعوا بها بعد أن حولوها سواقي وجداول وزرعوا ما جزر عن ارضها الماء فجاءت مزارع زكية وبساتين بهية •

وكان من أهم امور كل حاكم من حكام بلاد شنعار ومن اعظم مفاخرهم ان يحفروا انهاراً جديدة وما كانوا يتفاخرون فى غير هذا وحيثما كان يدخل الماء بقعة كانت تتدفق فيه الخيرات والغلات وتزكو فيه الاشجار وتكثر فيه الاثمار •

وقد ذكر هيرودوتس الذى طوى بساط ايامه قبل المسيح بنحو خمسمائة سنة ما هذا معربه « من جميع البلاد التى نعرفها نرى ارض العراق ازكاها تربةً وأخصبها مادة للحنطة ولم تحاول هذه الارض ان تحمل تيناً أو عنباً أو زيتوناً (١) لكن تزكو فيها سائر الحبوب اي زكاءٍ حتى انها لتعوض عما لا ينبت من تلك الاثمار والاشجار ولقد تؤتي الحبة الواحدة المزروعة مائتي ضعف وقد يزداد الاتاء بعض السنين فتفوق الارض نفسها

---

(١) هذا ماقاله المؤلف فى عهده والظاهر ان اهل العراق كانوا يعنون كل العناية بزرع الحبوب والنخيل ولا يهتمون بزراعة الاشجار المعروفة اليوم عندنا باسم « التحتانى » والا فان التين والزيتون ينموان ويزكوان فوق ما يتصور الانسان • وزيتون العراق من اكبر ما يوجد من جنسه على وجه الارض • واما العنب فحدث عنه ولا حرج • الا انه لما كان النخيل اكثر غلة من سائر الاشجار عنوا بـه كل العناية وتركوا سائر الاشجار التى لا تغل الا قليلاً بالنسبة الى النخل والحبوب فاعلم ذلك واحفظه •

فتعطي بدل الحبة الواحدة ثلثمائة • وعرض ورق الحنطة والشعير يبلغ هناك اربع اصابع هذا ولا اذكر شيئا عن ارتفاع سوق الذرة والسمسم لاني أظن ان من لم يكونوا فيديار العراق لا يصدقون ابداً ما ذكرته عن زكاء حبوبها• ومع كل ما يقال عن ثروة ارض العراق فمساحة ما يمكن سقيه وزرعه محدود بخلاف ما يتصور عنه ، فلقد حسب ان المساحة الكبرى التى امكن ان تحرث وتزرع وتسقى فى الزمان القديم كانت تتراوح بين ٢٠٫٠٠٠ و ٣٠٫٠٠٠ كم٢ ، والباقي وهو ٧٠٫٠٠٠ كم٢ ، من الارض الغريلية كان يترك على حالته الأُلى [(١)] فى العهد القديم كان الشنعاري اذا سار فى ارضه فلا يقع طائر بصره الا على غابات تزدحم فيها النخيل والغَرَب والصفصاف ويمتد السهل بين يديه بقدر ما كان يبلغ بصره من مدى الافق وكان اذا اوغل فى شرقي دياره لمح جبال ايران تتتالى امامه كأنها الاغنام تأخذ بعضها برقاب بعض ويرتقي بعضها فوق بعض كأنها درج توصلك الى ابعد اوج من الجو • ولعل هذا المنظر هو الذى دفع اهالي هذه البلاد الى البناية المتدرجة التى تُرى فى بعض مُشيداتهم وقصورهم فكان السطح يعلو السطح الآخر لتتمثل امام عيونهم الجبال البعيدة عن انظارهم ويفروا من منظر السهول التى قد اتعب ابصارهم هذا فضلا عن ان الحرّ هو الذى كان اول سائق لهم لبناية السطوح لانه اذا اشتد فى هذه الديار تعذّر على الانسان

---

(١) ذهب ولكوكس الى أن ماء الفراتين لا يكفى لسقى اكثر من ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ( كذا ) كم٢ ، وذلك اذا أريد أن يبقى فى دجلة ماء كافٍ لتسيير البواخر عليه • والا ففى دجلة مقدار وافٍ لسقى ارض اوسع مما ذكر وهذا لا يمكن الا اذا ترك تسيير البواخر على الشط المذكور وابدل بنقل الاموال على سكة الحديد • وما كادت تحتل الدولة البريطانية بغداد الا وشرعت بمد هذه السكة وهى اليوم تعين نقل ما يحمل على ظهر دجلة من الاموال والذخائر الحربية •

سكنى الغُرف فيعلو السطوح ليلاً ترويحاً للنفس وشماً للهواء العليل وهرباً من حر الحجر الذى لا يُطاق ٠

ومما بنوه مدرجاً هياكلهم حتى اذا علوها ليلاً ذكرتهم صهواتها خالق تلك النيران المنثورة فى القبّة الزرقاء نثار مسامير الفضة على بساط ازرق ٠ ولما كانت الامور تقود الانسان من شيء الى شيء ساقه هذا المنظر الرائع الى رصد النجوم والكواكب فكان اهل شنعار اول من عُني برصد محاسن السماء على قواعد مُطّردة وفاقوا من تقدمهم فى هذا الفن البديع ٠ وما زالت مجموعة معارفهم فيه تزداد وتتسع جيلاً بعد جيل حتى اتصلت بعدهم باليونان ٠ وهى والحق يقال لم تكن راقية كما يتوهمه بعضهم لكن اليونان زادوا عليها زيادة تذكر وكذلك فعل الرومان ٠ فتقوم منها علم النجوم وعلم التنجيم معاً ٠ الا أن اساس تلك المعلومات كان مبنياً على ما وضعه الكلدان وهم الذين كانوا يزعمون ان حظوظ الناس وسعدهم ونحسهم متوقفة على بروج السماء وكواكبها وعلاماتها وظواهرها وقد بلغ بهم الرصد الى انهم عرفوا ما كان ثابتاً من تلك النجوم وما كان متحيراً مع أن المقادير النيرة التى تغشي تلك القبة الزرقاء تعد بالالوف والملايين ٠ ولقد تصوروا فى تلك النيرات صوراً وهمية انتقلت اسماؤها الى الخلف الى يومنا هذا كالعقرب مثلا والرامح الذى نصفه انسان ونصفه حيوان والجدي بذنب السمكة ٠ وكان للشمريين معنى خاص بالسيارة التى نسميها الى اليوم الزهرة ويشركونها بمعبودة الحب والولادة وكان مركز عبادتها فى اورك ( الوركاء ) ٠

# الملوك الاولون لشمر واكد

## سرجون اكد وخلفاؤه

لما كان يحكم على ارض شنعار كلهـا أى ارض شُمر واكد معا ملك واحد يرعى رعيته بصولجانه ، كانت تلك الارض عبارة عن قوة متمعجـة تتمكن من ان ترسخ في جميع البلاد المجاورة التى اصحابها دون شنعـار قوةً وتمدناً وحضارة ، ويظهر ان تجمع هذه القوى وازدحامها فى مركز واحد هما من خصائص هذا الزمن لا من خصائص الخضوع لملك واحـد فى العصور الخالية الواغلة فى القـدَم • ويحق لنا ان نفكر ان الحـرية الشخصية كانت اثبت فى القبـائل الاولى منها فى مدن شنعار وديار مصر وكان من المتحتم على الرجل المتشوق الى أن يتقدم فى السلطة المنتظمة أن ينزع من نفسه شيئا من حريته الجاسية التى نشـأ فيها وينقـاد الى اخلاق ترضي الجميع • اما ملك شمر واكد فكان فى نفسـه مطامع اعلى ، كان فى نيته أن يكون سلطاناً مطلق الامر والنهي • ففى نحو سنة ٢٥٠٠ ق • م • على ما حسبه المحققون دفع سرجون ملك اكد جيوشه الظافرة الى ما وراء تخوم شنعار شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً • ففي الشرق اخضع لصولجانـه العيلاميين • ( الذين يسميهم العرب بني عُلَيم ، راجع القاموس مادة غلم بالغين المعجمة وابن خلدون ٢ : ٧ و١٣ ) فى القطر المرتفع المعروف عنـد العرب باسم خوزستان واليوم هو جزء من مملكة فارس وواقع فى الجنوب الغربى فى نحو طرف القسم المطمئن من الارض الغِريلية التى يجتمع فيها النهران وسكانه اليوم أقوام يتكلمون لغة خاصة بهم لا تشبه الساميـة ولا الشُمرية وكانت حاضرتـه السوس المعروفة اليوم باسم شُشْتَـر • وكان اولئك الاقوام لا يدينون بعض الاحيان للملوك الشمريين والاكديين فيقومون ويغيرون على مـدن شنعار • وكانت حضارة عيـلام مقتبسة فى صورتها

الخارجية من شنعار • اما فى الجنوب فان سفن سرجون كانت تمخر ميـــاه خليج فارس ليوصل جزائر البحرين بمملكته وهى الجزائر التى تتصل اليوم بدولة اخرى عظمى بواسطة بواخرها الجسيمة وفى الشمال كانت جحافل سرجون تصعد دجلة وتدوخ قبائلهــا الساميّــة فلقد وصلت على الاقل الى المدينة الارمنية المعروفة اليوم بديار بكر اذ وجدوا فيها صفيحة شُبَيْثيّــة ( بازلتية ) لابن سرجون ووارث مملكة ابيه •

ومدينة حرّان ( التى يسميها بعضهم خطأً هاران ) المتربعة فى سهل الجزيرة اخذت من عمران شنعار شيئا قليلاً أو كثيراً وهى التى اصبحت فى القرون المتتالية مركز عبادة خاصة بسين القمر الاله اله شنعار • وفى غربي الفرات دوخ سرجون بلاد قوم ساميين آخرين اسمهم العموريون وكانوا قد توطنوا سورية الشمالية بين الفرات والبحر وبلغ سرجون بحر الجنـــوب الكبير وكانت سفنه تذهب لتمكن سطوته فى قبرس وهى جزيرة لاحقـــة بدولة بريطانيا العظمى لحاق البحرين بالانبراطورية المذكورة بواسطـــه السفن ايضا • وعلى ما ترى كان سرجون قد دوخ العالم كله ذلك العـــالم الذى كان يعرفه الشنعاريون•اما ما وراءه فكانت ظلمات الهمجية تغشي ما بقي من العالم الذى كان وراء فتوحاتهم ، قلنا دوخ كل العـــالم ولعلنا بالغنا فى الكلام لان فى ذلك العهـــد نفسه وفى زمن فتوحات سرجون الكثيرة كان ملوك وادى النيـــل اختصوا بانفسهم فلسطين وفنيقية ولا جرم انهم واصلوا وراسلوا ملك اكد • نعم ان سرجون اصبح يومئذٍ ملك اقطـــار الارض الاربعة وسيدها لأن الشنعاريين كانوا يعتبرون البلاد الواقعة فى الاصقـــاع البربرية المكتنفة بالظلمات غير جديرة بان تُعدّ بين البلاد •

ان الدولة الاكدية العظيمة دولة سرجون لم تدم طويلاً • فمن بعد قرنين انتقل الصولجان من جديد الى ايدى الشمريين ، اذ جاءت مدينة اور

( المعروفة باور الكلدانيين فى التوراة وهى المسماة اليوم المقيّر ) واقامت على العرش ملوكا من ابنائها • والبـلاد التى دوخها سرجون خارجاً عن شنعار انتعشت ثم قدم الفاتحون العيلاميون وساقوا اسيراً آخر ملكٍ من ملوك اور والظاهر ان شنعار بعد هذا الامر سقطت من عظمتها فتطايرت شظاياها واصبحت كل شظية منهـا دويلة قائمة بنفسها • واذا نظرنا بوجه العموم الى ما يمكن العثور عليه من تاريخ شنعار نرى انـه يتعـذر على الشنعاريين أن يستعيدوا دولتهم الضخمة أو دولةً طويلة البقاء • نعم اننا نرى من وقت الى وقت قيام بيت من الملوك الشمريين أو الاكديين يقبضون على ازمة المملكة لكن ذلك لا يدوم طويلاً وان كانوا يجمعون فى قبضتهم التسلط على البلاد كلها • ان تاريخ شنعار المتقطع يخالف كل المخالفة تاريخ ديار مصر لأن تاريخ هـذه الديار يتسلسل تسلسلاً عجيباً اذا انتقل من يد ملكٍ واحد مستقل الى يد ملكٍ آخر مستقل مدة ٤٠٠٠ سنة تخللها فترة يسيرة • ولعـل سبب ذلك التقلب فى بلاد شـنعار وجود عنصرين قديمين مختلفين مع لغتين متغايرتين بخلاف بلاد وادى النيـل فان اهاليها يرجعون الى عنصر واحد ويتكلمون لساناً واحداً • هذا فضلاً عن أن بلاد مصر كانت قد انحازت عن سائر البلاد بالبحر الذى يفصُلها من جهةٍ وجبـال بلاد العرب أو هضابها من الجهـة الاخرى • واما بلاد شنعار فانها كانت شاغرة مفتوحة لكلٍ من يهجم عليها ومن كل جانب منها •

ان تاريخ شنعار السياسى متقطع الا أن حضارته بقيت ثابتـة غـير متزعزعة خلال ازمنة الملوك الذين تداولوها والطوارىء المختلفة التى طرأت عليها • فالاراضى كانت تزرع وتسقى واهاليها كانوا يبيعـون ويشترون ويدونون حساباتهم ويكتبون مراسلاتهم على صفائح من الفخـار وكانوا يعبدون اربابهم على ما كان يفعـله اجدادهم • وكان أهل الجبال وأهـل السـهول يزدحمون فى شنعار ويترددون الى غاباتهم وبساتينهم بدون مانع

يمنعهم ويتعجبون من محاسن ارضهم بل من محاسن فردوسهم وهو أمر لم يَرَوْهُ خارجاً عنها ، كانوا يرون في بلادهم حيطاناً سميكة من الطابق وابراجاً حسنة البناء كأنها تناغي السماء ، كانوا يرون صور حيوانات ووحوش جسيمة رسمت طبقاً لاصول صناعة توارثها الخلف عن السلف ولها مزايا خاصة بها لا توجد في غيرها ، وهي كلها منحوتة في الحجارة أو منقوشة على الآجر أو مصبوغة بأصباغ ملونة أحسن تلوين تتلألأ في الشمس الباهرة النور ، كانوا يرون اسواقاً يتزاحم فيها أناس من كل حدب وصوب ذوو ثياب واسعة طويلة تنحدر على اقدامهم الحافية أو التي فيها نعال خفيفة لا يسمع منها حس ، وهم يمشون في شوارع كثيرة التراب والعجاج ، كانوا يرون بضائع واموالاً معروضة للناظرين واقمشة نفيسة مزركشة أو مطرزة على ما كان يفعله الشنعاريون ، زركشة وتطريز لم ينافسهم فيهما أحد من الامم وقد بزوا فيها على سائر الاقوام المجاورين لهم ، أو يرون فيها بضائع معروضة وقد جيء بها الى بلادهم على ظهور الجمال أو الحمير وقد نقلوها من البلاد المجاورة . الا أن الشنعاريين كانوا محرومين من شيء واحد ، انهم كانوا محرومين في عهد سرجون اكد من الخيل الجياد، لأن القبائل المتجولة في الشمال كانت قد اتخذت الحصان خادمها بل رفيقها ولم تكن تعرف الطريق المؤدية الى الجنوب لا سيما الطريق المؤدية الى بلاد شنعار نفسها . وكذلك لم يكن لفراعنة ذلك العهد جياد لجر عجلاتهم كما لم يكن للاعراب الرُحَّل جياد لركوبها .

## تأثير حضارة شنعار وديار مصر على سائر البلاد

القوة مهما كانت مادية أو ادبية أو عقلية لابد من انها تؤثر اثراً عظيماً على من يكون حولها أو يراجع صاحبها وهكذا كان الامر في حضارتي شنعار وديار مصر على سائر بلاد ذلك العهد التي كانت تجاورهما . فان

الاقوام الاجلاف كانوا يتقدمون فى الحضارة بطريقين مهمتين ملامستين للاقوام العراقية احداهما النظر الى معيشة سكان النيل والفراتين ونقل ما يرونه الى اهاليهم بعد عودتهم الى بلادهم • فانهم كانوا يرون نتاج العلوم والفنون والصنائع والاشغال المحفورة والمنقوشة والاسلحة والاقمشة الفاخرة فكانت كلها تنفث فى صدورهم افكاراً تدفعهم الى أن يُجِلّوا اعظم الاجلال اولئك الذين كانوا يُبرزون الى عالم الوجود مثل تلك المآثر • واما ملك اكد أو ملك أور فانه رفع منار الحضارة والرقي بحيث أخذ نوره يضىء الى بعد سحيق وغدا كل واحد من الناس يستضىء به ويفرغ ما في امكانه ليضاهيه فى عمله • ومثل هذا جرى بعد ذلك بقرون عند الرومان فان رقيهم كان قد طبع فى نفوس اقوام الشمال الذين كانوا يدنون منهم احتراماً واجلالاً ما كانوا لينسونهما البتة • وعليه اصبح رقي ابناء الفراتين مما يحتذى اذ كان له مزايا خاصة به وبضائعه واشغاله واخذ يتعدى البلد بعد البلد والصقع بعد الصقع لتحقيق حضارة تعم اقواماً عديدين •

ومما يجدر ذكره ولا يغمط شكره انه سبق عمران سرجون عمران آخر لم يبزغ الا فجره وذلك فى سواحل البحر المتوسط وجزره الواقعة قريبة منه • وقد اخرج السر آرثر ايفنس شيئاً من آثاره وبقاياه من جزيرة اقريطش (كريد) • ومما لا نغض عنه الطرف ان تأثير عمران شنعار وديار مصر كان يصل الى قبرس لقربها من السواحل وقد ثبت ذلك اذ رُئي فيها ان سكانها اعتاضوا عن الادوات الحجرية بالادوات الشبهيّة (البرنزية) •

## بزوغ شمس حضارة بابل وظهور حموربي

ذكرنا الطريق الاولى التى سار فيها الاقوام الاجلاف يرتقون فى الحضارة والعمران • ما الطريق الاخرى فهى الاندغام أو الاندماج فى امة راقية أو الانضواء اليها • فقد كان يقع ان قبيلة من القبائل الضخمة أو

القوية تنحدر من الجبال أو تطرأ من الفلوات وتأتى فتستحكم فى البــلاد وتنشىء فيها مملكة ثم تمعن فى الحضارة التى اقتبستها عند احتلالها البــلاد وتدفعها الى أقصى غاية منها وتجرى على عادات اهاليها الدينية فتبعث بهَدْيها الى آلهة شنعار على ما هو جارٍ فى عوائد اهل البلاد وتتخذ لغتي شُمر واكد وتتخلق باخلاق ملوك البلاد • واحسن مثـال لتأييد قولنا هــذا ما وقع للاموريين فانهم جاءوا واستوطنوا البلاد المذكورة فى نحو الالف الثالث قبل المسيح ونحو المائة الخامسة بعد الملك سرجون وفى نحو ٢٠٠٠ سنة قبــل الميلاد اقبل شيخ اموري اسمه « سُمْوَابُو » وانشأ لنفسه مملكة فى ارض شنعار واتخذ له عاصمة جديدة وهى مدينة كانت واقعة على الفرات لم تكن ذات شـأن فى مدن القطر اسمها « باب ايلو » ومعناه باب الالهة وهى التى نَحَتَ منها العبريون اسم بابل فصحفها اليونان وقالوا « بابلون » وقام من هذا البيت بعد مائة سنة ملك اسمه حموربي وهو اكبر مشرعي بلاد شنعار فى التاريخ وبه دخلت البلاد مرة اخرى تحت جناحي ملكٍ واحد بعد أن اصبحت كتلة واحدة عجنته يداه • فقد ذكرت تواريخ حموربي المدونة فى عهده كيف جمع هذا الملك افراد تلك الامة ونهض زاحفاً بهم على ملك اور فافتتحها وكذلك فعل بمدينة لارسا ( سنكرة الحالية ) ونقـل اسلابهما الى عاصمته بابل • ثم حارب العيلاميين واحتل بلادهم المتاخمة لبلاده فأوقف بذلك غاراتهم • ومد جناح سطوته وشوكته الى ما وراء شنعار الى اعــالي دجلة وادمج ديار اشور فى دياره وكانت هذه البلاد واقعة فى منحدر دجلة ناظرة الى جبال ايران • وكانت تتصل من الشرق بسهول الجزيرة الخضراء وهواؤها أطيب من هواء شنعار المشهور بشدة حرارته • وكان اهالي تلك الديار ساميين مثل الاكديين والاموريين ولسانهم قريب من لسان الاكديين • وكانت اشهر حواضرهم اشور او آثور على دجلة ثم امتد اسم المدينة حتى

عم الصقع كله فالشعب نفسه فالالهة المعبودة فيها • وكان الاشوريون قد ابتنوا مدينة اخرى قبل أن يدوخ حمورابي ديارهم اسمها نينوى وكانت واقعة اعلى منها من جهة منحدر دجلة وكانت نيتهم أن يفوقوها على اشور حتى يكسف نورها نور اشور • وكان تمدن اشور كتمدن شنعار كآلهتها بدون فرق الا أن اخلاقهم على ما يظهر كانت تميل الى الحرب والقراع اكثر مما كانت تميل اليه اخلاق الشنعاريين يبين ذلك من هذا الامر وهو أن اشتر ( اوعَشْتَرْتَه ) معبودة شنعار الكبرى كانت الهة اللذات عندهم وكانت عند الآشوريين معبودة الحرب •

وفي عهد حمورابي البابلي اصبحت بلاد اشور كلها تعتبر جزءاً من مملكة شمر واكد • ولم يكن حمورابي ملكا مغواراً وفاتحاً بل كان ايضا حارسا حريصا على ادارة بلاده ، يشهد على ذلك رسائله التى انفذ بها الى الضباط الملكيين وعماله الذين كانوا فى جنوبي المملكة وهى الرسائل التى اكتشفت حديثاً فيظهر منها انه حوّل كل فكره وانتباهه نحو اسقاء الارضين وارووائها ، تلك الارضين التى يتوقف عليها حياة السكان وعمرانهم ، فلقد كان يحفر ما يدفن منها ويصلح ما يفسد ويشق ترعاً جديدة فيالمواطن التى بدت فيها الحاجة • وفى هذه السنين الاخيرة اكتشف العلامة الفرنسوي المسيو دمرغان القوانين التى انشأها لبلاده وقد نقلها الى الفرنسية لاول مرة الاب فنسان شيل الدومنيكى • وقوانينه هذه من اجزل الفوائد ، والمقابلة بينها وبين شرائع موسى من الامور التى تعرض لفكر الباحث بدون ان يُنبّه عليها • ولقد اتخذ واضعها طريقة ابتدائية للتميز بين طبقات الناس فقد قال فى جملة ما سنّه « اذا اتلف واحد عين رجل شريف تقلع عينه واذا رضّ عضو شريف يرض عضوه » •

وقال فى موطن آخر : « اذا اتلف رجل عين رجل فقير او رضّ

عضواً من اعضائه يؤدي منّاً من الفضة • والقضاء في امور الخلق اخشن حكما واقطع نفوذاً فقد قال في جملة ما سنّه : « اذا عالج طبيب شريف الجرح بليغ بمبضع من شَبَه ( برنز ) وسبب وفاته او اذا بزل دملة في عين شريف بمبضع من شَبَه وسبب تلف عينه تقطع يد الطبيب» • «اذا بنى بانٍ بيتاً لرجل ولم يكن بناؤه مكينا وتهوّر البيت الذي بناه وسبب وفاة صاحب البيت يقتل ذلك الباني » •

لا جرم ان شرائع حمورابي لا تمثل مطلقا افكار رجل خصوصي ، لكن افكار التشريع والاخلاق السائدة يومئذٍ في شنعار في القرن الالف قبل الميلاد • ولهذا يجب ان ينظر اليه نظرنا الى مُستندٍ اصلي يعتمد عليه من يهمه امر نشوء فكرة الخير والشر بين الناس •

وبعد ان ولى عهد هذه الدولة الامورية البابلية ابتلع في الآخر العنصر السامي العنصر الشمريّ • وغدت اللغة الشمرية لغة مماتة حُفظت بجنب اللغة الاكدية بمنزلة لسانٍ ديني على حد ما كانت اللغة اللاتينية في العصور الوسطى • واصبحت اللغة الساميّة منذ ذلك الحين لغة سواد الناس في شنعار كلها •

نشأت الدولة الامورية وترعرعت ثم اكتهلت فهرمت ثم طوت بساط ايامها وانقرضت • وآخر خلف لحمورابي تشير اليه الآثار يبين كانه يعود الى النصف الاول من القرن الثامن عشر قبل المسيح • وبعد ذلك انتشر اقوام في تلك الديار • وحِثّيو آسية الصغرى المعروفة ببر الاناضول وهم أقوام لم نسمع بهم الى اليوم وفدوا الى بابل وأخذوا معهم صورة الاله الخاص ببابل مردوخ ( المعروف باسم عام هو «بل» ( تخفيف بَعْل أي الرب أو السيد ) ثم قدم الديار المذكورة قوم من الجبال القائمة بين بابل وفارس اسمهم الكاشو ( او الكَشِيّون ) فجاءوا من الشرق واوغلوا في قلب البلاد

وأقاموا على عرش بابل واحداً من ملوكهم • واننا لنجد اثراً لهذه الدولة مدة قرن • ثم يكتنف البلاد ظلمات فوق ظلمات زهاء قرنين لا نرى فيها ما يفيدنا عن اخبار ارض شنعار شيئاً يذكر •

## أصل الهنود الاوربيين

ارضنا هذه عرضة للطوارىء والاقوام الذين يعيشون عليها يتنقلون من ديار الى ديار لعوارض اجتماعية فيحدث بذلك انقلابات وتغيرات عظمى تقلب البسيطة ظهراً على بطن ورأساً على عقب • وهذا ما نراه يحدث بعد ذلك في عهد اليونان والرومان حينما تتصدع تخوم البلاد وثغورها على ممر الاعصار ، بلاد وثغور حضارة البحر المتوسط فنرى أقواماً مختلفة تختلف اسماؤهم بين غاليين وقِنْبَرَة وطوطون وغوط ووَنْدَل وفَرَنْج وهوْن • ومثل هذا الانقلاب حدث أيضا في الاعصار الواغلة في القدم من الاعصار البشرية • ولا غرو ان النقص الجزئي الذي يُرى في تاريخ شنعار راجع الى مثل هذه الطوارىء التي لا بد انها طرأت بعد وسط القرن السابع عشر قبل الميلاد • ولقد حان لنا ان نُدوّن هنا شيئاً عن تلك الاقوام الضاربة في اكناف الارض ومتايهها ونخص بالذكر فرقةً منها تفيدنا كل الفائدة لما لها من المناسبة بينها وبين اقوام اورپة الحاليين ففي قرون عريقة في القدم ، ولعل ذلك كان في القسم الاول من الالف الثالث قبل المسيح ، كان يعيش قوم او طائفة من الناس طاوية بساط ايامها في بقعة من ارض واقعة بين جبال آسية الوسطى والاطلسي بدون أن يعرف على التحقيق موقع هذه البقعة • وبين ذلك القوم كان يعيش اجداد الاوربيين الحاليين واجداد الفرس وآريي الهند ، جميع اللغات التي يتكلم بها الآن هؤلاء الناس متولدة من لغة ذلك القوم • ولما يتغنى الهندي المتحمس في الوطنية انشودته « بَنْدْ مَتَرَمْ » « أُحيي الام » فانه في ذلك الوقت يُنادي

بدون ان يشعر بأخُوَّته مع حكامه الدخلاء الذين يسمون هم ايضا الام « مَدَر » ولم يسمِّ الانكليز امهم كذلك الا لأن اجدادهم واجداد غيرهم من اخوانهم في الاصل كانوا يسمعون الام تسمى في تلك البقعة المنسيّة المجهولة « مَتَر » او « مَدَر » او « مذر » او نحوها من اللفظ المشابه لاحدى هذه الكلمات . هذا ونحن لا نعلم ما كان يُسمي نفسه ذلك الجيل او ذلك القوم حينما كان منفرداً عن غيره من الاقوام الاّ ان علماء هذا العصر قد اجمعوا على تسميته بالهنود الاوربيين ، والالمان يحبون ان يطلقوا عليه اسم « الهنود الجرمنيين » وقد انفصل عن الاسم المهم فرع منه بعد حين من الدهر وسكن ايران وشمالي الهند ، وسُمي « آرْيا » اي الشريف. وكان من المألوف قبل قليل من الزمن والشائع بين الكتبة ان يسموا الجيل الهندي الاوربي الذي يتكلم لساناً واحداً باسم ( الاريان ) وهذا نسب لما يراد الدلالة عليه واللفظة اسلس من الكلمة الثقيلة المركبة اي « الهندية الاوربية » ولكن من الضروري العودة الى اتخاذها خوفا من ايقاع اللبس بين الفرع الفارسي الهندي وبين الجيل كله الذي انفصل عنه ، وعليه وان كان من الشائن بحق امةٍ لا تعرف الا رعاية الاغنام ان تسمى باسم يدل على تدقيق في العلم والوضع الا انه لا يوجد لفظ أحسن من تسميتك اياه بالهندي الاوربي . اننا لا نعلم كيف كان يسمى هذا الجيل نفسه في وطنه القديم الا اننا نعرض شيئا من نوع معيشته باستقراء الالفاظ التي بلغتنا من الاصل الاكبر . فنعرف انه كان جيلا راعي مواشٍ وغنم وكان بين حيواناته الاليفة حيوان لم يعرفه المصريون ولا الشنعاريون الى سنة ٢٫٠٠٠ قبل الميلاد وهو الحصان وكان اسمه يقارب قولك « إكفو » أو « اكوو » وكانوا يتخذون الالآت الشبهية ويسمون هذا المعدن « أياس » ( وباللاتينية اسْ ) وكانوا يعرفون حراثة الارض وبذارها وطحن الحنطة وكانوا يعبدون « الاله السماء » ويسمونه « دياوس » وهو الذي سماه اليونان بعد ذلك

( الاب زوس ) والرومان ( الاب يوِوة ) وتقذف بهم من ارض الى ارض حتى ساقهم تيار القومية الى ديار اوربة فاشتملوا عليها بعد أن امتدوا الى فارس والهند فأصبحت الارض التى احتلها الهنود الاوربيون أوسع من الارض التى نزلها الساميون وكانت يومئذٍ شنعار وسورية وبلاد العرب •

لا جرم ان الهنود الاوربيين عند صعودهم الى ديار اوربا لم يقتلوا اهاليها الموجودين فيها ، لكن تغلب فيها العنصر الجديد على العنصر القديم فابتلعه شيئا فشيئا وهذه سُنَّة قد قررتها الطبيعة « ان القوي يتغلب على الضعيف ويسوده » على أن هناك اجيالاً ليست من الهنود الاوربيين فى شيء وهم البَسْكَة والقِنَّة والمجر فانها لا تتكلم لغات المتغلبين اى الهندية الاوربية • هذا فضلا عن ان الاوربيين ليسوا هنوداً اوربيين خُلّصا وهيهات ان يكون ذلك وكثيراً ما اتفق ان الهنود الاوربيين الفاتحين كانوا قلالاً فلما تغلبوا على المتوطنين الصاغرين اكرهوهم على اتخاذ لغتهم ثم تزوجوا فيهم فاختلط الحابل بالنابل واختلطت أفكار وآراء بأفكار وآراء وهذا سواء كان فى اوربا أو فى الهند •

اما البَسْكة فى جبال بِرَانس ( أو البيرنية ) فانهم هم وحدهم بقية السكان الاولين الاقدمين الذين حفظوا لسانهم الاصلي •

وفى الالف الثاني لما أخذ الهنود الاوربيون يتواردون الى شنعار ارض الحضارة القديمة ومن المحتمل انهم وفدوا الى ديار النهرين فى الفترة التى كانت بين سرجون الاكدي وحمورابي البابلي ( اى بين نحو سنة ٢٥٠٠ و١٩٠٠ ق • م ) شرعت حينئذٍ الشعبة الآريّة من الهنود الاوربيين الى توطن النجد الفارسي ( أى بلاد ايران الحالية ) وتغلبوا على البنجابيين السود• واقدم اثر ادبي بلغنا من الهنود الاوربيين هى اناشيد « رِگْفَيْدا » الهندي ويظن انها من نحو ٢٠٠٠ سنة قبل المسيح • والكشيون الذين اجتاحوا

شنعار فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد احتكوا بهم وان لم يكونوا انفسهم آريين بما انهم يعرفون اسم ( شُرْياش ) للشمس الاله الذى ليس هو الا « سُرْيا » الاريانية وبعد ١٩٠٠ سنة بقليل نرى ذكر الحصان للمرة الاولى فى مستندٍ مسماري الخط قضائي المصدر ويسمَّى فيه « حصان بلاد التل » وبعد قرنين نجد قوماً يمتون الى الحثيين ( اى ليسوا هم بانفسهم هنوداً اوربيين ) اصحاب مقدرة فى اعالي الفرات اسمهم « الميتاني » والظاهر من اسماء ملوكهم الذين حكموا البلاد انهم آريون •

# في الدولة الاشورية الاولى

فى مدة الالف سنة التى بين السنة ١٦٠٠ الى السنة ٦٠٠ ق • م لم يبق مركز السلطة فى ايدى شنعار ( بلاد بابل ) بل فى ايدى قوم سامي يعرف بالاشوريين من اقارب الأوَّلين • وأخذ ضياؤها يتضاءل عند اشتداد نور المدنيتين الاشوريتين المنافستين لها وهما اشور ونينوى ، نرى الدولة الاشورية بصورة مملكة حسنة التنظيم ولها من المطامع فى الفتوحات ما لا مطمع وراءه • وكانت حضارتها وكتابتها وصناعتها ودياناتها من شنعار الا انه يتدفق فى كل ما عددناه من مآثرها ماء روح جديد هو روح الغزو والفتح والهجوم والتبسط فى مناكب الارض واسنمتها • ولما أرادت بلاد اشور المحافظة على مكانتها من العز الشامخ والمجد الباذخ اخذت على نفسها ان تفرغ ما فى وسعها لتحتفظ بما فى يديها ومع ذلك فقد يحتمل انه جاءت احقاب لم يكن لاسلحتها فيها القدح المعلى لما كان يقاومها من الخارج من قوة الدفع • ففي تخومها ـ ان كان من جهة الشمال وان كان من جهة الشرق ـ كانت ديار اشور تتصل ببلاد جبلية ولم يكن سكانها من الامم التى تتذل وتتصاغر بسهولة لهذا وذاك بل بالعكس كانت دائماً معدة للهجوم على الفاتح • ولهذا كان يصعب على الاشوريين تحقيق جميع احلامهم لا سيما

اذا أرادوا التوسع في جهة العراق • وكذلك يقال عن ايغالهم فى جهة ديار الشام أو آسية الصغرى فان هناك ايضا جبالاً منيعة يسكنها رجال اشـــداء لا يذلون بسهولة • وبعـــد أن نشأت الدولة الاشورية وظهرت للوجود انتابتها فترة ضعف ثم عادت فاستجمعت قواها ونجحت فى انشاء دولة أوسع واكبر دولة وجدت الى عهدها وكانت تحت جناح ملكٍ واحد وما مضى عليها جيـــل حتى ذهبت تلك الدولة وصارت كأنها لـــم تكن من حيث انها دولة •

وكان من بعض مطامح ملوك الدولة الاشورية ان تتملك على شـنعار وكانت مُدنها العتيقة وهياكلها القديمة مهد حضارتهم وتفوقهم تفعـل فى مخيلتهم ما لا يفعله سحر السحرة فكانوا يخرون لها سجداً مع أن نظامهم العسكرى كان قد احرز لهم مقاماً رفيعاً بين الامم • وما عـدا ذلك كانت ثروة ارضها الغريلية تزيدها مقاماً وثروة وتجعلها قلب العالم كله •

نعم ان بابل حافظت على منزلتها الرفيعة في شنعار منذ عهد حمورابي فكانت أم المدن وحاضرتها لا بل جميع المدن التى فى منحدر دجـــلة تلك التى كانت قد اشتهرت قبل بابل تضاءلت عنـــد ظهـور نورها الكاسـف واصبحت دونها مقاماً ولهـــذا كان خضوع ملوك بابل لملوك اشورية من اصعب الامور ولهذا ترى تاريخ الالف سنة هـــذه طافحة بالحروب بين الاشوريين واولاد عمومهم البابليين وكان ملك اشور يضيف الى اسمه فى بعض الاحيان ملك شمر واكد • وكان بعض الاحيان يتمكن البابليون من دفع جيوش اشور واقصائهم عن بلادهم فينادون باستقلالهم وانحيازهم عن اولئـك الطامعين وكان لسلطنة ملوك اشور نظـــام يتـدافق تديُّناً فالهم الاشورى الذى يمثل شعبه واسمه كاسم البلاد نفسها اى اشور كأب الرب الذى يخدمونه لنيل رضاه عند زحفهم على الامم وتدويخ البلاد له • وكانت

فتوحاتهم معروفة ومشهورة بالخشونة والوحشية وتبين صريحاً كيف كانوا يفهمون صفات الهتهم « اشور » اذ كان يقول ملكهم : « امرني ربي بان ازحف على ... فاظهرتُ نفسي لجيوشهم في جبل رومة فعاقبتهم وكسوت الارض بجثثهم كأنهم وحوش الفلاة . ودوخت مدنهم وأخذت معي الهتهم وسقتهم اسرى مع أموالهم وثروتهم وأحرقت مدنهم بالنار فافنيتها ودككتها ولم أُبقِ فيها الاّ خربة يباباً ، ووضعت عليهم نيْر سيادتي وبحضورهم شكرت ربي اشور » قتلت مائتين وستين جُندياً وقطعت رؤوسهم وابتنيتُ منها اهراماً .

« قتلت واحداً من اثنين وابنيت سوراً عظيماً بين يدي ابواب المدن وأمرت بسلخ اعظم العصاة وغشّيْتُ السور بتلك السلوخ . وقد أُدخل بعضهم احياء بين آجر ذلك السور وبعضهم صلبوا على السور . وأمرت بسلخ جم غفير منهم بحضوري وأمرت بأن يغشى السور بجلودهم وجمعت رؤوسهم معاً بهيئة تيجان ونظمت أجسادهم المثقبة بهيئة رُعَلٍ .

فخسر الاهالي قلاعهم وقصورهم وفروا نحو ( ماتوي ) وهي بلاد حصينة طلباً لملجأ لانفسهم فتبعتهم ونثرت على الجبل جثثهم وملأت الاودية من اسلائهم . اما مائتا الرجل الذين أخذتهم احياء فأمرت بثقب معاصمهم . فتهلل وجهي للاخربة وشعرت بشفاء غليلي عند تهدئة غضبي » .

ان اوراق حروب الاشوريين لا تتكلم الاّ عن الحروب وهذا أمر جدير بالملاحظة .

واول امتداد السلطة الاشورية كان فى القرن الثانى عشر قبل المسيح فالملك تغلث فَلَسَر الاول ( تُغُلتيپَلاشَرّا ) دوخ فى الجهة الغربية الشُشْيَان والكماجنيَان فى بلاد تلال اعالي الفرات بين الجزيرة وآسية الصغرى ثم سار مظفراً نحو الشرق فى جبال كردستان واوغل فى البلاد

التى نسميها اليوم ارمنية حتى الشمال وقهر الممالك الصغيرة الواقعة فى شمالي سورية واجتاز لبنان نحو الساحل الفنيقي وتمكن من رؤية البحر المتوسط فلما فزع ملك مصر من دُنوّه منه اهداه هدايا ومن جملتها تماسيح وافراساً مائية لدار الحيوانات الملكية التى كانت على دجلة واستحوذ على ارض شنعار الا أن ملك بابل انزل بجيوشه الاشورية اعظم النكبات ودفعها الى بلادها • وابن تغلث فلَسَر أخذ ثأر ابيه واخذنا نسمع ببغداد للمرة الاولى ( لا بكونها مدينة عظيمة بين مدن شنعار ) بان الاشوريين دوّخوها وبعد عدة ملوك اضمحلت سلطنة اشور ولم يعرف بعدها اهالي سورية وفلسطين اهوال الاشوريين فى مدة اجيال تتالت بعدهم هناك •

## اسرائيل

ان فلسطين التى كانت قد ارتعدت فرائصها من تَغْلَث فَلَسَر الاول لم تكن الارض المقدسة التى نتصورها حسبما يخيله لنا اسمها ، انما كانت ارض الاموريين والكنعانيين والفرزيين والحُوّيين واليَبُوسيين وغيرهم الذين لم يَرَوا بعد يشوع ورفاقه ، لان تاريخ اسرائيل فى عهده الاول كان فى زمن احتجاب السلطة الاشورية الوقتي على ما نعلمه من التوراة — والمراد بتاريخ اسرائيل الاول زمن افتتاح تلك الارض وعهد القضاة وزمن شاوول وداوود وسليمان وملوك اسرائيل ويهوذا الاولون — فكانت تلك الديار داخلة فى البلاد الواقعة بين الاردن والبحر ، وكان الناظر الآتي من خارج اذا سَرّح طائر بصره على هذه البلاد بعد أن يكون قد اجتاز الجزيرة وآسية الصغرى ( الاناضول ) وسورية ومصر فى القرن العاشر أو التاسع السابق للميلاد ، تظهر له مملكتا اسرائيل بدون شان بالنسبة الى سائر ممالك العالم •

ففي سائر الممالك ايضا كان الناس يدوّنون افكارهم أو تواريخهم على الحجارة والفخار والبردي والرق ، وحيثما كانت تلك الاخبار مكتوبة ، من هضاب فارس فى الغرب الى بحر الروم ، نُسيت بعد بضعة أجيال ، وغدت كأنها لم تكن واما الاشياء التى دوّنها بنو اسرائيل فانها لم تُنس قط وبقيت حيّة فى ذاكرة الامة لا تزال تطالع يوماً بعد يوم الى عهدنا هذا فى الارض كلها •

ما كانت افكار هذا الشعب الصغير لكي نُعنَى بأمره هذه العناية الكبرى ؟ ان هذا السؤال لا يجاب عنه الآ من بعد أن يُخاض عباب فلسفة طويلة عريضة موضوعه : ما معنى ظهور المرء على مسرح هذه الدنيا ؟ ولما كان الجواب عنه ليس من خطة كتابنا هذا فنكتفي بقولنا انه ظاهر من نفسه أى ان اخبار هذا الشعب الصغير هى الامور التى الفناها فى هذه الدنيا فمن اللازم اللازب أن نلفت نظرنا الى ورائنا على ما كان يحدث فى تلك العصور بما يتعلق بأمر بني اسرائيل نرى من هذه الانباء كيف ظهرت السطوة الاشورية، لا لملك يُدَوّن فتوحاته على الحجر لكن لامة يقع عليها ظل السلطة الاشورية •

اننا لا نسمع شيئا عن اشور فى أى موطن من مواطن تاريخ اسرائيل الاول فى كنعان ، انما اعداء بني اسرائيل ممالك صغرى مجاورة لهم ــ الفلسطينيون والموابيون والحماتيون والدمشقيون ــ واعظم دولة كانت قريبة منهم كانت الدولة المصرية وكانت مخيلتهم مملوءة من بهاء سلطة الفراعنة فنسمع ذات مرة عن جيش مصرى يكتسح الارض ويجتاح اورشليم ، ثم فى وسط القرن الثامن نرى رؤية تتفطر لها الاكباد عودة ظهور السلطة العظمى سلطة دجلة فى افق اورشليم • وفى عهد آحاز ملك يهوذا كان يهدد اورشليم تخرب شمالي اسرائيل والسوريين • فهذا هو الخطر القريب • ثم

ظهرت فجأة قوة اعظم وبانت وراء الاعداء الشماليين عادت اشورية قــوية من جديد ورجعت أيضا الى نحــو الغرب فلما بدا خيالهــا المظلم فى الافق اضمحلت جميع الضغائن والحزازات من صدورهم .

هذه الايام كانت الايام التى يظهر فيها رجل واحــد قائم بنفسه بين جملة أناس آخرين وهم احياء وحقيقيون فى نظرنا ـ ان النبي ورجل دولة اورشليم اشعياء بن عاموص . كانت سياسة الملك آحاز الاولى أن ينال سنداً يعتمد عليه ولو من بعيد وهد سند اشورية على اعدائه الاقربين اسرائيــــل الشمال ودمشق . وفى تلك الآونة تنبأ اشعياء عن غــــارة الاشوريين على الارض كلها وانبعاثهم فيها انبعاث السيل الجارف على اسرائيل الشمال وعلى دمشق ـ نعم ، لكن أيضا على بني يهوذا أنفسهم على أرض عمانوئيل بذاتها .

ان الاسرائيليين الشماليين تعاطوا بعض التعاطي مع الاشوريين قبلعهد اشعياء لكن فى سنة ٨٦٠ ق . م . اجتازت الجيوش الاشورية مرة اخرى جبل لبنان واكرهوا فنيقيي ساحل البحر أن يؤدوا امارات الاكرام لملكهم . وفى سنة ٨٦٤ حارب جنود آحاب ملك اسرائيل جنباً لجنب مع السوريين جيوش شَلمَنَسَر الثانى ملك اشور وفى سنة ٨٤٢ كسر جيش اشوري جيش حَزائيل ملك سورية كسرة سفحت فيها الدماء سفحاً فرأى ياهــو ملك اسرائيل انه من باب الحزم والسياسة أن يبعث بهدايا الى ملك اشورية لكن للمائة السنة التى عقبت هذه المعركة تلاشى ايضا تهديد اشور لارض اسرائيل لان البيت المالك فى اشور كان قد ضعف اضعفه التخاذل وكانت ايدى الاشوريين طافحة حروباً وُجّهَتْ الى جميــع الجهـات ليعودوا الى فلسطين .

اما الآن فى ايام احاز ملك يهوذا فكان على عرش نينوى رجل قــوى صنديد اسمه تغلث فَلَسَر الثالث ( سنة ٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق . م . ) وما تنبأ

به اشعيا وقع ، فان الجيوش الاشورية زحفوا على اسرائيل الشمال بجيوش كالسيل الجارف وأخذته اسيراً الى بلادها البعيدة وهكذا اكتسحوا المملكة السورية وفى سنة ٧٣٢ عقد ملك اشور مجلساً فى دمشق التى افتتحها • ولما مات تغلث فلسر حاول هوشع أن يتخلص من ربقة الاشوريين بدس الدسائس مع مصر لكن قتله شلمنسر الرابع ابن تغلث فلسر وحاصر السامرة • الا ان شلمنسر لم يعش ليرى نتيجة محاصرته لان السامرة سقطت سنة ٧٢٢ ق• م• بعد أن انتقل صولجان الملك الاشورى الى سرجون أحد كبار قواد شلمنسر وبسقوط السامرة اضمحل ملك اسرائيل فبقي يهوذا وحده ليمثل شعب الله •

## في السلطنة الاشورية الثانية

فى كل الوقت الذى تكلمنا عنه كان الاشوريون يحاربون فى كل جهة • وكانوا فى قراع دائم فى عدة مواطن فى وقت واحد وكانت تؤجل الاعمال الحربية فى جهة من الجهات لان القلاقل والفتن كانت تثور فى طرف المملكة الاقصى ففى الغرب كان مطمع الاشوريون أن يعبروا الطورس ويقيموا فى آسية الصغرى ( الاناضول ) وقد هجم الاشوريون على الجبلين الذين كانوا يسكنون تلك البلاد الواقعة بين ما نسميها اليوم مرعش وزيتون فذللوهم واكتسحوهم فانفتح الطريق لقواد ملك اشور الى قلب نجد آسية الصغرى ، لا بل خضع لهم ذات مرة سهل قليقية مع مدينة طرسوس • وكان من اعدائهم فى الشمال عدو عنيد فى المملكة التى كانت تتأيد من نفسها فى البلاد المعروفة اليوم ببلاد ارمنية وديار بحيرة وان وبحيرة ارمية وكانت هذه الاصقاع تعرف يومئذ باسم اراراط (١) والارمن الذين كانوا جيلاً

---

(١) ان اراراط فى العهد القديم هو اسم بلاد لا اسم جبل • والسفينة استقرت « على جبال اراراط » •

هندياً اوربياً لم يكونوا قد نزلوا تلك الديار والظاهر ان بين خَلْق وخُلُق هذا القوم القديم فى بلاد الارمن وبين خَلْق وخُلق الكرج الذين هم فى يومنا هذا مقاربة ومقارنةً بينة وعلى كل حال أخذ حضارته وكتابته وطرز صناعته من أهل الجنـــوب والآثار المسمارية تُبـدِي مشابهة عظيمة لآثار شنعار وقد يوجد منها الى يومنا هذا فى تلك الديار ديار بلاد الارمن •

وفى الشرق تسلقت الجيوش الاشورية سفوح جبال نجـــد ايران وايران هو الاسم الفارسي للديار المعروفة اليوم بمملكة العجم أو مملـكة فارس ونرى كيف ان الآريين أخذوا قبل٢٠٠٠ سنة هذه البلاد واستحوذوا عليها ومعنى ايران فى اصل وضعها الديار الآرية وفى الزمن الذى وصلناه الآن كان آريّو ايران يعيشون فى الغالب عيشة الرُعاة فى اول عهـــدها ويقضون ايامهم حول قلاع راجعة الى عدة رؤساء مستقلين • ولكن ما عتم الايرانيون ان انشأوا دولة ضخمة دخلت ايران بواسطة طرقجبالها فاتصلت بالبلاد البابلية الاشورية مملكة الماذيين مع مركزها فى اكبتانة ( همذان فى عهدنا هذا ) ولعل الملوك الماذيين تركوا منذ ذاك الحين تقاليد اصلهم القديمة الساذجة واتخذوا الثياب الواسعة الطويلة وجَرَوا فى بلاط ملكهم مجرى السلاطين الساميين الذين كانوا قد مدوا جناح سطوتهم علىارض الفراتين •

وفى الجنوب كان سعي الملوك الاشوريين المتواصل أن يحافظوا على سوددهم فى ارض شنعار ، الا انه بعض الاحيان كانت تقوم بابل على ملوك أشور فتدفعهم الى من حيث اتو • بيد ان الاشوريين كانوا يعودون ويعودون ويعودون ويدخلون بابل دخول فاتحين • وكل مرة تمكنوا من القبض على ملكها حيّاً اذاقوه كأس موت شنيع ، لكنهم كانوا يؤدون لالهة بابل مراسيم الاكرام والاحترام الخارجية • ومن الصعب يومئذٍ أن تبقى شنعار فى رخائها واقبالها لا سيما وقد كانت الايام ايام اضطراب وفتن وبدأت الانهر والاقنية

تدفن وليس من يكريها وأخذت الهمجية تغلب الحضارة شيئا فشيئاً • ويظهر ان الاراميين ــ اى السوريين ــ دخلوا البلاد جماعات وافــرة ومن ذلك العهد بدأت اللغة الارامية تحل محل اللغات السامية فى البلاد كلها بين بلاد فارس والبحر المتوسط •

وبعد بضع مئات من السنين اصبحت الآرامية اللغة الشائعــة فى كل ذلك القسم من الارض •

## بلاد اشور وبلاد مصر

فى عهد سرجون الذى تسمى باسم الفاتح الاكدي الكبير قبل الفي سنة، تقدمت السطوةالآشورية تقدماً جديداً، وذلك انسطوة مملكة اراراط فى الشمال كُسِرتْ شوكتها ، واذا لم تكن تلك البلاد تؤدى الجزية فانهـــا لا جرم كانت ضعيفة غاية الضعف لتكون مخطرة • وكانت الحامية الاشورية مقيمة فى ماذية • وفى آسية الصغرى كانت تصل سطـــوة ملك اشور الى الهاليس ( قزل ارمق الحالي ) وكان مردوخ بَلَدان ملك بابل قد طُـــرد واقيم سرجون فى بابل « ملك شمر واكد » وكانت تعاقب العصيان والفتوح يجري مجراه فى عهد سنحاريب بين سرجون ( ٧٠٥ الى ٦٨١ ق• م• ) وقد الفنا اسمه لان السلطة الاشورية تتقدم خطوة خطوة على طول فلسطين التى اصبحت بمنزلة الجسر يصل البحر بالبر نحو المملكة الاخرى الضخمة، تلك المملكة القائمة فى وادى النيل • وقد تقوت البلاد المصرية حديثاً • ففي اعالي النيل فى المكان الذى نرى اليوم مدينة الخرطوم كانت مملكـــة تعرف « بكوش » وهى التى يسميها اليونان ( اثيوبية ) وكان ملوكها مصريي الاصل والحضارة ، وكان صولجان الملك بيد دولة مستقلة ، وفى ذلك العهد كان ملك كوش انحدر الى ارض اجداده فاتحاً اياها فجمع بينها وبين بلاده الكوشية وجعلها مملكة واحـــدة • وكان يظهر ان اصطدام الحضارتين ،

الحضارة التى نشأت على ضفتي النيل والتى نشأت على ضفف الفراتين لا بد منه . وقد سبق انه فى عهد سرجون اضطرت مـــدن فلسطين الى الخنوع للسلطة الاشورية . وفى سنة ٧٠١ ق. م. اقبل سنحاريب بجيش نحـــو الساحل وقد ولىّ وجهه شطر بلاد مصر واول التحام وقع بين الجنـــود الاشورية والمصرية كان فى سهل الفلسطينيين فانكسر المصريون كل الانكسار وظهر كأن الساعة قد حانت للاشوريين أن يوغلوا فى بلاد النيل ، الا أن الامنية لم تتحقق وقتئذٍ . وفى تلك الحركات العسكرية كان مُلكِ يهوذا الصغير فى الوسط لان اورشليم كانت واقعة على التلال المجاورة للطريق الكبرى التى تسير فيها الجيوش على طول ساحل فلسطين ولهـــذا أصبح القسم الخاص بهذا العهد من الاشوريين اوضَح لنـــا من أى قسم كان من اقسام تاريخهم لاتصال وقائعهم بوقائع بني اسرائيل المدونة اخبارهم احسن تدوين .

بعـد ان انتصر سنحاريب فى سـهل فلسطين حاصر مدينـة لاكش اليهودية[١] ( فى رسم حفر فى ذلك الزمن ترى هيئة المحاصرة وهـــو اليوم موجود فى دار التحف البريطانية ) وارسل سـفيرين عاليي القـــدر ليخيف اورشليم باقوال ضخمة ويقول للملك : « اين آلهة همات وارفاد ؟ اين آلهة سفروائيم ، وهناه ، وايواه ؟ أَفَأَنْقَذَ هؤلاء الالهة السامرة من يديّ ومن هم اولئك الالهة الهة البلاد الذين انقذوا بلادهم من يديّ » .

ولم يكن لسنحاريب وقت حينئذٍ للهجوم على اورشليم . لان الملك سمع ما تتناقله الالسن ان ملك كوش ومصر يعود من جديد . فأخذ يسرع للذهاب الى مصر . فانفذ رسولاً آخر الى ملك يهوذا يقول له ان لاينخدع

---

(١) وتعرف اليوم اخربتها باسم تل الحسى أو التل الحلو .

بالفترة الموقتة فيأمن على نفسه كل الامن • وكانت الجيوش الاشورية مرابطة على حدود الصحراء بين فلسطين ومصر ففاجأها طاعون وكاد يفنيها عن آخرها والقليل الذى بقي منها اضطر الى العودة الى الوطن على اسرع وجه امكنه • وبعد مضى زمن طويل علم هيرودوتس فى مصر قصة كيفية مجيء سنحاريب زاحفاً على مصر وكيف استنجد فرعون بالاله فتاح فاقبلت طوائف عظيمة من الجرذان وهجمت على الجيوش الاشورية وقرضت جميع اوتار القسي وسيورها بحيث اضطر الجنود الى الفرار من امام وجهها • وكان المصريون يُرونه تمثال فرعون المصري وبيده جرذ • وكأن نية النحات كانت ان يمثل رمز الطاعون(١) •

واسرئيل ايضا قابل بين خلاصه العجيب وبين القدرة الالهية التى تتصرف بالاقدار والحوادث وكيف ان اسرئيل وصل الى ان فَهِمَ حالته بنوع خاص فقد قال المؤرخ اليهودى ان يهوه أرسل رسولاً فذهب وأتلف جيوش الاشوريين • وكان اشعياء منذ سنين قد صرّح لاهالي اورشليم انهم اذا سكنوا آمنين وواثقين به تعالى ولم يزيدوا أسلحتهم بطلب خيل حرب من مصر فانه هو سبحانه عز وجل يحرص على مدنهم والان فى الوقت الذى يظن ان الامور بلغت أقصاها من القنوط اذ بيدٍ وليست بيدٍ بشرية ازالت الخطر • لم ير يهوذا الاشوريين ابداً فى مدة تسنم حزقيا عرش المملكة فان مردوخ بَلَدان ملك بابل فى فرصة من فرص العصيان الناجحة ارسل وفدا سياسيا الى ملك يهوذا ولا جرم فى نيّة ان يتذاكر معه فى اتخاذ الوسائل اللازمة لدفع عدوهم عنهم • لكن فى سنة ٦٨٩ ق • م • بعد وفاة مردوخ

(١) افلون السمنثيّ باعث الطاعون يمثل بصورة رجل واقف ورجله على جرذ ( پوسانياس ١٠ : ١٢ ) لما دخل الطاعون مدن فلسطين هدّأت يهوه بتقديمها اليه جرذانا وذمامل من ذهب ( اسموئيل ٦ ) •

َبلَدان سنحت فرصة للاشوريين فانتهزوها وسخروا بابل لانفسهم وصمم سنحاريب على هدم مدينة حموربي القديمة طلبا لراحة بلاده فقد قال في ما اتصل الينا خبره من الرُقم التي ابقاها : « اما المدينة والهيكل فقد دككتهما الى أسسها وقلبتهما ظهراً لبطن واحرقتهما بالنار ، الحائط والسور ومزارات الآلهة واهرام الطابوق واللبن فقد دككتها دكاً ودفنت الترعة الكبرى بتلك الانقاض » وبقي مكان بابل مدة عشر سنوات قاعاً صفصفاً وبعدها قام على عرش اشور اسرحدون بن سنحاريب (٦٨١–٦٦٧ ق٠م٠) وفي عهده دفعت السلطنة الاشورية فتوحاتها ابعد مما عهدنا •

وشرع اسرحدون يعيد بناء بابل ( وكانت امه بابلية ) فصنع الآجر وكري الانهار المندفنة وعاقب ايضا اهل البادية الموجودين بين بابل وسورية وامَّن الطرق للقوافل • وفي الشمال كانت قد حدثت بعض حركات جديدة في الشعوب • فان الطوارىء الاسكوثية كانت قد هبطت من قلب آسية وتوطنت البلاد التي نسميها الان اذربيجان وطوارىء الجيل المعروف بالقِمْري ( وتذكره ايضا الاخبار اليونانية ) فانهم داروا حول غربي البحر الاسود فانتشروا في آسية الصغرى ففي هذه الجهة كانت جيوش اسرحدون مشغولة بابعاد القِمريين عن البلاد الغربية من هضاب بلاد الارمن •

وما زالت بلاد مصر تجذبهم اليها حتى رأى اليهود يوما من علو تلالهم قدوم الجيوش الاشورية سائرة على طول الساحل مجدّة في قطع البادية الواقعة بين فلسطين وديار مصر فلم يحققوا امنيتهم مرّتين ، ولم يخدمهم الحظ أبداً اذ وقع في الزحفتين المذكورتين اضطراب في أقصى أطراف الدولة فاضطروا الى تأجيل ما تخفيه صدورهم • وبينما كانت جماعة من الجند الاشوريين تسير في طريقها لاقت جماعة من جنود المصريين والظاهر انها نكبت • وفي الآخر اي في سنة ٦٧٠ اقبل الحظ اذ عبر الاشوريين

رافية ( رضع )على حانة البادية وكسروا الجيوش المصرية قريبا من التخوم فى معركتين اريقت فيهمــا الدماء وبعد اربعــة ايام دخلوا « منفس » . فــكان الاشوريين في وادى النيل . واصحابه من اعرف الناس حضارة في الارض ومدنه قديمة الغنى وهى اليوم تتعرض باهوالالاشوريين المشهورين بالقساوة والهمجية فاكتسحت منفيس واقام المعتمدون الاشوريون فى اهم مدن مصر السفلى ( أي وجه البحري ) وأضاف اسر حدون الى القابه الاخرى « ملك مصر وكوش » وَشيَّد فى نينوى قصراً جليلاً رائع الحسن والبهاء وفتح له جادةً وضع فيهاتماثيل ابي الهول على ما شاهده فى ديار مصر .

وبلغت دولة الاشوريين اقصى السعة والامتــداد فى عهد اشوربنيبل بن اسرحدون ( ٦٦٧ ـ ٦٢٥ ق . م . ) وكان فى ديار مصر اضطراب وفتن وذلك ان بيت ملك كوش كان قد انزوى فى اعالي النيل فى اراضي اصله بعيداً عن هجمات الاشوريين الذين لم يفتتحوا فى ايام اسرحدون الا الوجه البحرى . ومن حاضرتــه « نپاتة » ( وهي اليــوم جبل البرقل ) فى السودان كان يسهل عليه اضرام نيران الفتن فى مصر او الهبوط اليها ليعود فيفتتح البلاد كلهــا حالما تمكنه الفرص من تحقيق مناه . وفى اثناء هــذه المكافحة صعد الاشوريون فى عهــد اشور بنيبــل اعالي النيــل حتى وصلوا « طيبة » أو « طيوة » عاصمة الصعيد ( وفى بعض من مكانها اليوم مدينــة الاقصر أو قصور أبى الحجاج وكرنك ) فاكتسحت وسيق أهلها أسيراً بعيداً عن بلاده . فكان هدم هذه المدينة العظمى مدينة الاله آمون نكبة أثرت كل التأثير على مخيلة الشرقيين كلهم أجمعين فى ذلك العهد : « توآمون التى كانت واقعة بين الانهر وكانت المياه حولها وكان سورها النيل وحائطهــا النيل » .

كوش ومصر كانتا قوتها وكانت بدون حد . فوط ولوبيم (اللّوبيون)

كانوا فى نصرتها ومع ذلك فقد سيقت بعيداً • ذهبت أسيرة ووُصِّل أطفالها عند رؤوس طرقها واقترع على رجالها الاشراف وقيد جميع رجالها الكبار ( ناحوم ٣ : ٨ وما بعدها ) •

## ارتفاع وانحطاط اشورية

فى عهد اشور بنيبل تملك الاشوريون على بلاد اخرى قديمة الحضارة نريد بها « ديار عيلام » أما سبب هذا التغلب فكان ناشئاً من تزاحم المرشحين للعرش وكانوا كثيرين وكل واحد منهم يكايد الآخر ، حتى كثيراً ما كان يقع التذابح بينهم وهذا ما مهَّد العقبات لملك اشورية ومكّنه من مدّ ضَبْعه اليها فذلّل ملوكها وأنزلهم عن عروشهم • فدخل اشور بنيبل مدينة شوشن دخول فاتح كبير : « بمشية اشور واشتَر دخلتُ قصور هذه المدينة واسترحت فيها أبياً آمن السِرْب ، وفتحت كنوزها ، وأخذت الذهب والفضة وثروتها وجميع المثمنات التى جمعها فيها ملك عيلام الاول والملوك الذين جاؤوا بعده ولم يتمكن أحد من أعدائهم الى الآن من المجيء اليها ليختطفها من أيديهم ، أما أنا فأخذت كل شيء بمنزلة اسلاب » • وكان فى أيدى الاشوريين جماعة من ملوك عيلام فى السابق وكان اشور بنيبل يشدهم فى مركباته ليجروها ، فاعلاً ما يفعله بعد ذلك بقرون تيمورلنك بالملوك الذين أسرهم • وحينما كانت دولة اشور تشتمل على بابل ومصر وعيلام كانت أوسع دولة وُجدت الى عهدها بيد ملك واحد ، ومع هذا فقد جاء بعده من الملوك مَن فاق سيّد اشور فى سعة الملك وضخامته فقبل وفاة اشوبنيبل أخذت سطوة ماذي تنمو على تخوم اشورية وتهدد جارتها وبدأت كفة الميزان ترجح للآريين على الساميين • ونهض فى مصر رجل صنديد اسمه بسمَّاتكس فطرد الحامية الاشورية من البلاد فأنقذها وكان فى عهد فرعون مصري الدم •

ونال الفوز على أعدائه بفضل عساكر أجانب جاءت من وراء البحر استأجرهم لنفسه وكانوا من جيل يعيش على سواحل ايجي وكانوا يتخذون جُنَّةً من معدنٍ أتم شكلاً من غيرها وهم أيضاً كانوا يرجعون الى جماعة من الشعوب الهندية الاوربية وكانوا قد أتوا تلك الربوع قبل المسيح بألفي سنة والجماعة الراجعة الى هذه الامة الخصوصية الهندية الاوربية التى احتك بهم الشرقيون لاول مرة تسمّى نفسها يَؤُونَس وسماهم الساميون يَوَانيم أو يَوَان والتوارة تسميهم ياوان • والاسم الذي يستعمل في لسان هــذه الامة للدلالة على الامة كلها التى كان منها شعبة اليَؤونَس هو «الهَلَّينَس» وسوف تسمع عنهم أشياء كثيرة بعد ذلك •

لقد رأينا كيف ان الحضارات القديمــة كانت فى جزءٍ صغـير من الارض وكانت هدفاً لهجمات الامم المتوحشة الهمجية التى كانت تطرأ عليها من الخارج • وقد وقع مثل هذه الغارات في آخر سني اشور بنيبل فقد تقدمت الطوارىء الاسكوثية خارقة جبال جنـوبى بحـر قزوين واجتازت مـاذى واشورية متجهة الى سورية سائرة على طول ساحل فلسطين واغلة فى اقاصى البادية التى تفصل فلسطين عن مصر وهناك وقفوا لان پساماتيكس دفع اليهم اتاوةً عظيمة لينجى بلاده منهم • ويظن ان فصول ارمياء الاولى التى يتكلم فيها عن قوم من الشمال كتبت عند اشتداد الامور بقدوم الاسكوثيين وذكرهم أيضاً هو الذى بعث فى حزقيال الرعب والهول والقى صورة هذه المخاوف على سحب المستقبل وذكرهم باسم ياجوج وماجوج (جوج) والغريب فى هذه الغارات انها بانت فى وقت كأنها السيل الجارف تحاول أن تبتلع جميع البلاد وتجتاح كل التخوم الا ان هذه الامور لم تدم زمناً طويلا • اذ توارى هؤلاء الوحوش عن الابصار وعادت الممالك القديمة الى ما كانت عليه سابقاً أما تأويل هذا الانقلاب الغريب فيحمل على ان تلك الزحفات كانت لغاية السلب والنهب على أقرب وجه يقبله العقل • ولم يكن فى أفكار أصحابها الفتوح ولهذا كانوا

يرون يجوسون خلال البلاد والمدن المفتوحة فكانت تسقط عند هجومهم عليها فتصبح غنيمة باردة لهم • واما اذا بلغوا مدناً مسورة فان اسوارها كانت تقف في وجوههم حصناً حصيناً • ولهذا كنت ترى هذا السيل البشرى اذا جزر يعود فيخرج الناس الى اشغالهم ومواصلاتهم كأنهم كانوا مختبئين وراء اسوار مدنهم او حيطانها ويصلون ما انقطع من حبال مراجعاتهم التى كانوا قد بدأوا بها قبل أن تنزل بهم تلك الطوارىء • وما زالت تنقص مع الزمان ويُفَت فى عضدها وتقلم اظفارها حتى ضعفت •

والامم التى غزتها أو اضرتها استرجعت قواها وبعد ذلك ثارت عليها لتتلفها شيئاً بعد شيء •

والذى سعى فى ابادة هذه الطوارىء الاسكوثية هو ملك ماذي كي أكشار ( سياكسارس ) والفضل يرجع اليه فى هذه المأثرة • فقد كانت ماذي قد نهضت من كبوتها التى دفعها اليها الاعداء وانتعشت اكثر مما انتعشت بلاد اشور • فى تلك الأثناء كان الاسكوثيون قد ولوا الآن خَوَرَ اشور ما زال بيناً ومفعول عشرين سنة اخربوا فيها ودمّروا باد في جنباتها • فاتفقت ماذى وبابل على ان تهجما معاً على اشور لتسقطاها ففعلتا فنالتا بغيتهما • فسقطت وبادت بيداً من على وجه الارض فى مدة لا تتجاوز عمر انسان رآها فى أوْج سطوتها • بعد أن مضى بضع سنوات على هلاك الاسكوثيين ، أبَتْ بابل أن تبقى صاغرة لاشورية ، فنهضت الامة كلها نهضة واحدة وقاد جنودها كلداني اسمه نبو يَلَصَّر • والكلدانيون كانوا من الاجيال الارمية الاصل وكانوا قد نزلوا الشرق قبل بضعة قرون فأسسوا فيه مملكة مستقلة لاصقة ببابل على ضفة الفرات المقابلة لها • ثم أخذ الكلدانيون يتسربون رويداً رويداً الى بابل وينتشرون فى تلك الديار حتى تبسَّطوا فى البلاد كلها وأصبح بعد ذلك معنى « كلدية » « بلاد بابل » نفسها •

لا جرم ان امتزاج الكلدانيين بسكان شنعار القـــديمة سَهُلَ لمـــا انتصب على عرش بابل ملك كلداني الاصل فحينئذ تمـــازج الشعبان كل التمازج واقتبس كل واحد من صاحبه ما ينقصه من امور الحضارة والعمران فأخذ الكلدان يكرمون الالهة القديمة لتلك الربوع باشكالها المعروفة منـذ العهد العهيد ، واتخذوا الكتابة المسمارية لتـدوين أنواع امـــور معيشتهم واشغالهم واستعار البابليون من الكلدان علم النجوم وعلم التنجيم ومنذ ذلك الحين امتزج علم النجوم بديانة الشنعاريين حتى انه فى العهـــــد اليونانى الرومانى كانت كلمـــة الكلدان تعني « المنجمين » (١) ثم ان نبو بَلَصَّر الكلداني خالف ملك ماذى ليقاوما ملك اشور وتزوج ابنه نبوكدنصر ابنة ملك ماذي تأييداً للصلات بين الدولتين وفى سنة ٦٠٨ ق٠ م ٠ أخـــذ الماذيون نينوى ٠ والفاتح الآرى « هدم الهدم مزارات آلهـة اشور وافنى كتبهم المقدسة وابى أن يُبقي واحـــداً منها واكتسح مدنهم وغادرها قاعاً صفصفا كأنها لم تكن ٠

## الماذيون والارمن

لما اقتسم الماذيون والبابليون الدولة الاشورية القديمة ، استولى على قسمها الشمالي كي اكشار فاخترق الماذيون جبال اراراط من جهـة آسية الصغرى تلك التى كانت يوماً تحت صولجان الاشوريين وهنـــاك تحاكّوا بالمملكة التى كانت قد أخذت باخضاع القسم الغربى من آسية الصغرى أى مملكة ليدية ٠ وكان الليديون جيلاً آخر من الهنود الاوربيين وكانوا قـد نزلوا تلك الربوع عند انحدار سيل المهاجرين من الهنود الاوربيين فاحتلوا

---

(١) ورد مثل ذلك فى سفر دانيال وقد استعمل لفظة الكلدانى فى اسفار العهد القديم بمعنى البابلي ٠

اسية الصغرى منحدرين من البلاد التى نسميها اليوم البلقان وذلك قبل هذا العهد بقرون عديدة ، بينما كانت الشعبة الآرية تتملك ايران وشمالي الهند حتى اصبحت غنية بتجارتها وبالذهب الذى كان يحمله نهر پكتول ، وكانت حاضرتهم « سرديس » •

ويمكننا أن نؤرخ يوم الوقعة التى وقعت بين الماذيين والليديين لانهم كسروا فى يوم انكساف الشمس • ويجب أن يكون ذلك فى ٢٨ ايار سنة ٥٨٥ ق• م• ولعل هذا التاريخ هو أقدم تاريخ يمكننا أن نعينه بمثل هذا التدقيق •

وفى نحو هذا الوقت أخذ جيل آخر من الهنود الاوربيين يقيم فى البلاد الجبلية بين البحر الاسود وبحر قزوين فى شمالي بحيرة « وان » حيثما كان ملوك اراراط الاقدمون يحكمون فى تلك الارجاء فى زمن الاشوريين وكانوا يقلقون هؤلاء الملوك أعظم القلق • ومنذ ذاك الحين أخذ الشعب الهندى الاوربى يسكن الربوع الى يومنا هذا ، وواحدهم يُسمي نفسه « هاي » ويقال فى جمعهم « هايك » ثم سماهم الفرس بعد ذلك بقليل « ارمينيا » وعنهم نقلها اليونان ومنه اسمهم عندنا أى « الارمن » •

## مملكة بابل الجديدة

وقع القسم الجنوبى من الدولة الاشورية فى يد الدولة الكلدانية الجديدة التى انشئت فى بابل فكانت المسألة مسألة افتتاح جديد • ففى تلك السنين الاخيرة من سني الفتن والاضطرابات اقبلت طوارىء من القمريين ونهبوا « حرّان » المدينة المقدسة مدينة القمر الاله وحرّان هذه من مدن الجزيرة • وكان ( فرعون نخاو ) النشيط خلف الملك پسّماتيكس قد افتتح فلسطين وسورية حتى الفرات مدفوعاً الى يوشيا ملك يهوذا الذى كان قد حاول أن يعترض له فى « مجدو » ( أرماجدّون ) ليمنعه من التقدم

وأقام على عرش اورشليم اميراً يهوديا آخر واسمه يوشيا كاسم المالك يومئذ . فزحف نبوكد نصر وارث عرش بابل وأنجد ما بين النهرين ودفع المصريين وراء فلسطين ، بل اجتاز البادية واحتل « بلوزيوم » المدينة المصرية الواقعة على التخوم ، فسمع هنالك بنعي والده وكان في عزمه أن يقمع هجوم المصريين ويعود سريعا الى بابل .

وفى عهد نبوكدنصر ( سنة ٦٠٤ ـ ٥٦٢ ق.م. ) عادت بابل فلبست حلة سلطة جديدة وماست بثوب مجد سَنّي وبعد أن مضى عليها مائتا سنة في بدء امرها وهى تختال سودداً على باقي البلاد قضت نيفاً والف سنة وهى تابعة لدولة اخرى أو محافظة على استقلال صعب دقيق الحصر ثم أخذت تتلألأ ضياءً وسناءً لكن هذا المجد البابلي المتجدد كان عبارة عن شمس أصيل الحضارة الشنعارية القديمة ، قبل أن تتوارى عن الانظار كل التواري . فهذه العودة الجديدة الى المجد والفضل التى حُصِرت فى حياة رجل واحد تظهر كأنها هنيهة بالنسبة الى الازمان المتطاولة التى ذكرناها فى سابق كلامنا .

وقد وافق وقوع هذه الهنيهة فى زمن تطور خبرة شعبين آخرين خُصَّا لان يدفعا أفكار البشر وتصوراتهم وتخيلاتهم المستقبلة لتُبتَ على أحسن صورة وقد خُصّا بذلك تفصيلا لهما على أى شعبين آخرين كانا فى وقتهما يومئذ لما فى غرائزهما من المآثر الجليلة وهذان الشعبان هما اليونان واليهود وذلك لان الحضارة الشنعارية المحتضرة كانت قد فعلت فى نفوسهما كل الفعل قبل أن تشهق شهقتها الاخيرة وبقي اسم بابل فى الاجيال المتتالية واسم المنتسبين اليها مرادفاً للعظمة والجلالة والبذخ والزهو .

اما من جهة السعة فان مملكة بابل فى عهد نبوكد نصر لم تكن تشمل ما كان يمتد من دولة اشور القديمة فى قسمها الجنوبى فى عهد

اشوربنيبل • ويظهر ان عيلام انتقلت الى يد جيل آري يتصل بالماذيين نسباً وكان مركزهم في الديار الجبلية من الجهة الجنوبية الغربية فكان هذا الجيل قد أسس مملكة جديدة تدفع الجزية الى ملك ماذي وكانت بلاده في ما نسميه الآن ولاية فارس وكانت قد ضمّت اليها ديار عيلام التي حطمت كما حطمت دولة تلك البلاد مع ملوكها الذين هم من ابنائها في ايام مملكة اشور الاخيرة وسوف نسمع عنهم كثيراً في ما يأتي من مطاوي التاريخ وكانوا يسمون انفسهم « فارساً » ومنه اسم الفرس الذي وصلنا عن طريق لغة اليونان •

اما في الغرب فقد عجز نبوكد نصر من أن يبلغ وادي النيل لكنه تمكن من الحصول على الجسر أو الطريق الموصل اليه والمراد بذلك سورية وفلسطين • وقد قيل أن يكون ملكا لتلك البلاد واحد من آل داود وذلك الى وقت محدود ، لكن الدسائس بين اورشليم وبلاد مصر كانت تُدَس اغلب الاحيان اي دس حتى ان الجيوش البابلية لما اخذت اورشليم للمرة الثانية اكتسحت المدينة وهدمت هيكل سليمان بعد أن حاول الملك صدقيا ان يتخلص من سطوة قاهرة لكن ذهب كل سعيه ادراج الرياح وسيق اليهود اسرى الى ديار بابل ومعهم آخر ممثل للسلالة الملكية العتيقة •

وقد افرغ نبوكد نصر كنانة سعيه لاصلاح شؤون شنعار وتجديد معالمها ودوارسها فكرى الانهر ورمم الترع وبذل همة في اسعاد العباد ووسع بابل وزاد في محاسنها ومآثرها بدون أن يعرف الملل أو الكلل فشاد هياكلها المتهدّمة ورفع رؤوسها الى السماء ونقش جلائل أعماله على الآجر باللسان القديم وحرفه العهيد المعروفين في البلاد لتشهد بانه وجد أيضا في بابل ملك قدير مخلص العبادة للاله « بل » أو « بنو » وكانت بابل المدينة محصورة في فسحة مستقيمة الزوايا تكسيرها ميلان ونصف في ثلاثة اميال ولها سوران خارج وداخل وكان الآتي اليها من الخارج لا يدخلها

الا من بعد أن يجوز حيطانها الواسعة ، الواحد بعد الآخر وكان عرض احدها بَيّنَ العرض حتى ان عجلتين كانتا تسيران أو تتلاقيان على أعلاه. وكان نظر الداخل ينبهر من رؤية المدينة وعظمتها كما ينبهر المسافر اليوم من رؤية اسوار پكين الشهيرة . وكان الفرات يشق هذه الفسحة المستقيمة الزوايا .

وكانت ابنية الطاباق في هذه المدينة منحصرة في القسم الموجود بين الحيطان من تلك الفسحة . وقسم منها كان عرضة البساتين ومزرعاً للحنطة حتى اذا ما ضايقها العدو في يوم حصار تستطيع حينئذ ان تطعم ابناءها . وفوق البيوت المألوفة كانت ترتفع الهياكل بهيئة ابراج بسطوح بعضها فوق بعض كما كانت تسمو صُعُداً مباني نبوكد نصر الجديدة وكان احدها بناية بطبقات قد ركب بعضها بعضاً وتلك البَنيَّة هي قصر الملك وكان قسم منه في ضفة من الفرات والقسم الآخر في الضفة الثانية أي انه كان راكباً الفرات وكان يجمع بين القسمين سَرَبٌ تحت النهر ، والقصر وحده كان عبارة عن مدينة وكانت جدرانه مغشاة بنقوش حيوانات مرسومة على الطاباق باصباغ زاهية لا تمحى وتمثل تلك النقوش حيوانات قد خُصّ رسمها باهل البلاد على وجهٍ غريب تناقلها الخلف عن السلف . وكانت قبة القصر المذهبة تتألق ضياءً من مكان سحيق ولا سيما لان الشمس في هذه الربوع تبقى سافراً لا يحجبها حجاب في ايام الصيف . ولا جرم أن هذا القصر الملكي كان متصلاً بالجبل المصطنع ، ذلك الجبل الذي وصفه لنا اليونان باسم « البساتين المعلقة » فقد روي ان ملكة نبوكد نصر المادية كانت تذوب اسىً لوجودها في بلادٍ كلها سهول ، فأراد أن ينقل لها تلال بلادها فابتنى لها نبوكد نصر جبلا متدرجاً تتفاوت سطوحه ذاهبة صعوداً وقد بناه كله بالطاباق واقفاً على عقود مع مقدار وافر من التراب لتنمو فيه

الاشجار الكبيرة وهناك ينابيع ماء وشلاّلات تسقي الاشجار النامية نمـــواً زاهياً كما ان هناك سراديب مُظلمةٍ لذيذة •

وقد وصف لنا دانيال في سفره نبوكد نصر سائراً على سـطح قصره وهو يقول حينما كان يرى من موطنه سطوح المدينة : « اليست هذه بابل العظمى التى بنيتها انا لتكون جديرة بالقصر الملكى وذلك بقوة عزتي وبهاء مجدي » ( دانيال ٤ : ٣٠ ) •

وقد كانت بابل حاضرة هذه البلاد الغنية وقلبها الحي ومركز حركتها فى أمر التدبير والتوفير ، ولا جرم انها كانت كذلك حتى لما كانت خاضعة لغيرها فى أمر سياستها فقد كانت محطّ رحال الاقـــوام ومجمع اتصـال تجاراتهم ، اذ فيها كانت تزدحم بياعات اهل الشمال وبلاد العرب والهنـد وبحر الروم وسكان الغرب • وفيها مجتمع اناسٍ من سلالاتٍ وألسـنة مختلفة وفيها كانوا يختلطون بعضهم ببعض ، فقد كانت بالحقيقة بابل • وفى محلة من محـــلات بابل التى كان يشُــقها « الطـريق السلطانى » كانت الشركات التجارية ومخازنها الواسعة مُنتسقة على طول ترعة « پيكودو » واليوم يُـرى فى ايدي طلبة المدارس الانكليزية نحو ثلاثة أو اربعة آلاف صفحة من الآجر يطالعها اولئك التلامذة وهى عبارة عن دفاتر المحل التجارى الكبير لـِ « أجبي واولاده » فقـد كان يتعاطى بيع غـــلات بابل والنخاسة ( تجارة الرقيق ) ويمكننا ان نتحقق منها معاطيات تجارتهم وسعتها وثروتهم الضخمة منذ ايام نبوكدنصر الى نحو مائة سنة بعدها •

وما أن مضت ثلاثون سنة على وفاة نبوكدنصر ، حتى كان مجـــد حضارة شنعار قد ذهب الى الأبد •

# عصر في التاريخ

كان القرن السادس قبل المسيح زمناً من الازمان التى مُيزَت في التاريخ البشري تمييزاً بيّناً ، فقد كان نهاية عصر هرم مضى عليه الوف من السنين ، وبداءة عصر جديد سعيد . فلقد رأينا في ما بحثنا فيه من كتابنا هذا ما طرأ على ارض الفراتين وارض وادى النيل من الاحداث والتغيرات وفى مطاوي تلك الطوارىء كانت الحضارة القديمة قائمة سائدة . اما الآن فان دولاً جديدة أخذت تظهر فى الكون دفعة واحدة . ففى غربى آسية حلّ الهنود الاوربيين محل الساميين وبيدهم الامر والنهي الى ما يشاء ربك من الازمان المقبلة المتطاولة .

واذا طفت العالم كله المعروف يومئذٍ ترى هذا العصر حافلاً بجلائل الامور . ففي الصين كان عصر كنفوشيوس وفى الهند عصر بوذا وفى اوربة كان العصر الذى بلغ فيه « الهلّين » اشدهم فظهرت مزاياهم الخاصة بهم دون غيرهم .

هذا ولو راقب أحد الفضلاء ما كان يجرى حول الارض فى نحو السنة ٥٥٠ قبل المسيح لما استطاع أن يفرز بين تلك الاقوام المزدحمة المختلفة الاصل والجنس واللغة الأُمة التى يكون لها النصيب الاوفر فى مستقبل مصير ابناء البشر .

اما نحن فلكوننا جئنا بعد تلك الامم فنستطيع أن نرجع بأبصارنا الى ما وراءنا لنفرزها من اخوتها وهى تظهر يومئذ مختلفة الواحدة عن صاحبتها كل الاختلاف ومتضاربة كل التضارب واحدى هذه الامم كانت الامة الآرية الموجودة فى ايران وكانت قد اصبحت امة ضخمة وقوية والثلاث الاخرى الباقية ستكون من الامم التى تزداد شأناً وخطورة كلما اوغلت فى مستقبل الزمان .

ومن احدى هذه الامم الثلاث تلك الامة التى يصدق عليها أن نسميها «قلب البشر » فى تاريخ المجتمع ، وان لم تكن يومئذ ذات بال ابداً ، فقد كانت طائفة من الناس خرجت من تلال اليهودية وغُرِسَت وراء الترع البابلية كما يغرس الغَرَب . وهناك كانت تنوح نواحاً شجياً كئيباً متذكرة وطنها العزيز والكتبة منهم كانوا يكتبون على ادراج من رق شرائع امتهم ، وكان قد سنَّها لهم رجل يسمونه موسى وذلك منذ عهد عهيد . ولم يُسمع اسم موسى فى طول الشرق وعرضه الآ من ابناء هذه الملّة الحاملة الذِكر ولا تَزِد .

والقوم الآخر من هذه الاقوام الاربعة كان مؤلفاً من عدد عديدٍ من المدن مدبرة شؤونها بنفسها وقد انتشر اصحابها فى القسم الغربى من شبه جزيرة البلقان وعلى طول سواحل الغرب المبهجة من آسية الصغرى كالجزائر وسائر الاصقاع الواقعة على شواطىء بحر الروم كايطاليا وصقلية وجنوبى بلاد غالية واسبانية وشمالي افريقية والبحر الاسود . ولا جرم انه كان لهم شأن اعظم من شأن تلك الطائفة المنفية فى بلاد بابل ، لكن كان يتعذر عليهم أن ينبهوا على ما هو عليه من التفرق والشتات فى مدن صغيرة كانت كلها ممالك فى ذلك العهد ولم يمكنهم أن يعارضوا السلطة التى كانت موجودة فى مثل ماذي وليدية وبابل ومصر . وكانت امم الشرق تعرفهم على ما نعهد باسم « اليلوانين » وفى بلاد فارس باسم « ياوانة » ولم ينظروا اليهم نظرهم الى امة حائزة شيئا من التفوق فى المـدارك خصَّ بهم دون غيرهم ، بل نظروا اليهم نظهرهم الى جندٍ يؤجرون والى انهم من احسن المقاتلين الذين يوجدون فى عهدهم .

وكانت الدولة المالكة فى مصر قد استراحت كل الاستراحة باعتمادها على هذه الجنود المأجورة اليوانية اكثر منها على جندها . وفرعون نخـاو

بعث بزرديتّه تقدمةً الى أُيلون المليطي اليوناني وهي الزردية التى كان لابسها فى معركة « مجدو » التى هزم فيها يوشيا ملك اليهود •

ويمكننا أن نميز بين جنود نبوكدنصر الاجنبية رجلاً من « ياوان » ابلى بلاءً حسناً فى معركة بقتله رجلاً عظيم الجثة فى مبارزة وقعت له معه ، فكافأه الملك البابلي عن ذلك بأن أهداه حساماً قبضته من عاج ليأخذه معه الى مسقط رأسه جزيرة لَسْبُس التى تسمى اليوم مَتليني أو مدلّي • وهذا الرجل يفيدنا فائدة خاصة لانـه كانَ له اخ يُعرف باسـم الكيِنْوس مشهور باشعاره ( ولا شك لم يكن بختنصر يعرف من هـذا الامر شيئـاً ) لكن طلبة مدارس الانكليز الذين يتلقون العلوم فى القرن العشرين يطالعون قصائده أو قصائد وُشيَتْ على طـرز ذلك الوشي من نظـم هوراتيوس الروماني الشاعر الشهير •

اما القوم الرابع الذى كان فى ذلك المجتمع ، مجتمع لفيف الامم ، فكان العرب وكانوا بعيدين عن غيرهم قد اختلوا صقعاً حاراً ويابساً وكانوا رُحلاً على خلقهم الاول وما كان ينتظر منهم شيء جليل ومع ذلك فبعد أن مرّت عليهم الف سنة أخذوا يجرون فى ميدان تاريخ الامم شوطاً يذكر ولا ينكر •

## كورش الفارسي

لقد تقدم القول ان فى النصف الاول من القرن السادس قبل الميلاد أمكن للامم الاسيوية على ما أشرنا اليه سابقاً ان ترى فى دولة ماذي التى كانت تمتد من نجد ايران الى قلب اسية الصغرى دولة كبيرة آرية • وفى وسط القرن طرأ تغيير لا يمكنك أن تصفه لا من جهة انه قَلَبَ الدولة الماذية ولا من جهة انه انتقل من حالة الى حالة أو امتد امتداداً فى الارض• وهذا التغيير هو حدوث دولة قابضـة على صولجان الملك فى « اكبتانة » •

والرجل الذى قلب الدولة لم يكن غريباً بل كان ملك الفرس لهذه المملكة الآرّية الصغيرة الواقعـــة فى جنوب غربى ماذي التى رأيناها انها ابتلعت عيلام واسم الملك « كورش » ـ واللاتين يلفظونه جيرُش ـ وينتقـل عن السلف ان امه كانت ابنة ملك ماذي ، وكان بيته يعرف باسم أحد اجداده الكيانيّين ( المعروفين عند الاوربيين بالآشامنيد واسمهم القديم عند الفرس هَاخَمَنِيش ) •

يعتبر كورش اول هؤلاء الفاتحين الكبـــار الذين فتحوا الفتوحات الواسعة وفرشوا على ارضها بساط ملكهم الضخم وقد رأت آسية تتابع امثاله على تراخي استار الاعصار وكان هؤلاء الفرس يتصلون بالماذيين من جهة نسب امهاتهم • لكن بلادهم الواقعة على الانجاد العالية ابقتهم بسيطي العيشة خشنيها اكثر مما كان عليه الماذيون الذين كانوا قد وقعوا فى حبائل نينوى وبابل وبذخ عيشهما وزهوهما • وحالما انتصب كورش على اريكة ملك ماذي واقيم ملكاً على الماذيين وعلى الفرس والعيلاميين اصبح مالكاً لدولةٍ اوسع من كل دولة سبقتها من جهة الالتئام والوحدة • وارصد بقية حياته ليزيد فى بسط ملكه • وفى سنة ٥٥٠ ق• م• على ما ذهب اليه العلماء ، عندما ارتقى كورش عرشه فى اكبتانة ونودي به ملكا على الماذيين والفرس • واما سائر دول العالم فانها رأت ان السطوة الايرانية وتوسعها فى الارض تهددهم فتحالفت عليها والمتحالفات هنّ لودية ومصر وبابل •

وفى سـنة ٥٤٦ تغلب كورش على سَرْدِس وازال بذلك مملـكة لودية • وما زالت السلطنة الفارسية تمتد على طول اسية الصغرى امتداداً مستقيماً متجهة الى السواحل اليونانية مع حاشيةٍ لها هى مدن يونانية •

وبعد ذلك حوّل كورش نظره الى الشرق ومن سنة ٥٤٥ الى سـنة ٥٣٩ ق• م• كان يحارب ويفتح المدن فى الارض التى نسميها اليوم ولايات

بخارى ومرو وفى ما وراء بحر قزوين وفى افغانستان وبلوجستان ٠

ولما كان اهالى تلك الديار يتصلون نسباً بالاقوام الايرانية لم يخف كورش من انتقاضهم عليه فزحف على بابل ، وكان القابض على صولجان الملك يومئذٍ نبوناهِد وهو وان لم يكن من آل نبوكدنصر فى الظاهر الا انه توفق لرعاية الملك فقبض عليه كورش واسره وصيَّر ارض شنعـــار ولاية فارسية ( سنة ٥٣٨ ق ٠ م ٠ ) وتركت مصر وهى تعتبر آخر دولة كبيرة من دول العالم القديم ٠

وقبل أن يهاجم كورش الديار المصرية ، كان قد نزل ميادين حروب جديدة فى قلب آسية ومات أو سقط مجنـــدلاً فى معركةٍ شهرها على الشعوب الهمج فى موطن قريب من احدى ضفتي سِرْداريا ( سنة ٥٢٩ ق ٠ م ٠ ) ٠

وأتم ابنه قمباسوس فى مـدة ملكه القصير ( من سنة ٥٢٩ ــ ٥٢١ ق ٠ م ٠ ) فتح مصر ثم اتفق ان الموبذان الماذيين أعانوا أحـــد المكارين فاغتصب الملك مدة وجيزة ومن بعده انتقل الصولجان الى يد شعبةٍ اخرى من شعب الـكيانيين ــ الى دِارا « دارايوش » او « داريوش » بن يشتشب ( أو هشتشب سنة ٥٢١ ــ ٤٨٥ ق٠ م٠ ) ٠

## في الدولة الفارسية في عهد دارا

اذا كان كورش منشىء السلطنة الفارسية فدارا كان منظمها ومرتبها ولقد كابد الامَـرين فى عدة سنوات ليقمع جماح الفتن القوميــة ويردع الشيوخ والامراء الايرانيين عن مطامعهم ومطامع أبصارهم الى امتداد ذلك الملك الضخم الذى دخل فى حوزة الشاهنشاه ، فهيئة الادارة الملكية وتقسيم اراضي السلطنة مَرْزَبانياتٍ وتوزيع الضرائب اعتبرت بعد ذلك من عمل دارا وكان هذا الملك حاول أن يوسع ملكه فى احدى الجهات ويمعن فى

ارضها فعبر البسفور فى اوربة وأجبر مكدونية على اداء الخراج ثم اوغلت جيوشه فى جهة الشمال خلال البلاد التى نسميها اليوم بلغارية ورومانية ثم خلال الطونة ( الدانوب ) فى سهول جنوبي روسية لكنه أخفق فى زحفته هذه فاضطرت الجيوش الفارسية الى العودة نحو الجنوب متكبدة خسائر • الا ان دارا بقي قابضاً على تراقية ومكدونية •

فيتضح لك مما تقدم بسطه انه لم يكن يوجد فى ذلك العهد فى الارض الا مملكة واحدة ، فى طرفها الواحد جبال البلقان وفى الطرف الآخر ضفاف نهر السند ، وفى أقصاها الواحد شلالات النيل وفى اقصاها الآخر سرداريا ، فاجتماع عدة ممالك بهذه الصورة لم يحلم به أحد فى القرون الماضية بأن يكون فى قبضة رجل واحد • ومن خاصيات هذه السيادة العظمى ان الشعوب التى كانت خاضعة لصولجان هذا العاهل الكبير كانت تبقى آمنة على نفسها عائشة عيشتها الغريدة ومدبرة شؤونها بنفسها طالما تخضع لطلبه فى اداء الخراج وتقديم حصة الرجال اللازمة لجيوشه • فالحق يقال ان جمع القوى فى قلب المملكة الحديثة النشوء فى مثل تلك الديار التى كانت تصعب فيها المواصلات وكانت فى بدء أمرها هو من الامور الخارجة عن طور الامكان • ومع ذلك فقد وقع فان المتبوع الفارسى الاعظم كان قد أقام نوعا من السعاة او الرسل على طول الطرق الرئيسة فى مملكته ليضم الأطراف النائية منها الى قلبها فتجرى مجارى الحياة فى عروق هذا الجسم العظيم • والديار التى هى مثل آسية الصغرى كان قد أودع جزءا منها الى عناية حكامها الوطنيين التى فيها ، والجزء الآخر الى الحكام الايرانيين الذين كان لهم قصور خاصة بهم فى الديار المذكورة • وكان بيدهم الربط والحل بقدر ما يحتمله المقام الخاص بهم وكانوا كأنهم ملوك صغار فى تلك الربوع ، وكان المبدأ المألوف فى الادارة الفارسية ان لا يتدخل كبارها

القابضون على زمام الملك فى شؤون داخل الطوائف التى أخضعت لحكمهم وكان الملك راضيا عنهم طالما يحكمون باسمه حكما عادلا ومخلصين لعرشه • فالمدن اليونانية الواقعة على سواحل آسية الصغرى كانت مثلا تحت حكم ملوك يونان وقد وافق على تعيينهم الملك الفارسى وكانوا يُبدلون حالما يبدو منهم ما يدل على تقلب فى اخلاصهم • ونرى مثالا آخر من نوع هذه الادارة المذكورة فى اليهودية لان بابل لما انتقلت الى كورش كان قد أذن لجميع الاسرى اليهود أن يرجعوا الى أوطانهم اذا أحبّوا العودة اليها وان يبنوا لهم هيكلا جديدا ليَهْوَه • فعمل بهذا الاذن جماعة منهم وشادوا هيكلا على مكانه القديم وما زال الامر فى نمو وازدياد حتى نشأت حوله مدينة يهودية جديدة وكان لها شيوخ خاصة بها يديرون شؤونها ولما انفذ ملك فارس حاكما أو عاملا باسمه فى اليهودية انتقاه بين يهود بابل وهو نحميا •

وكان يشعر بربقة الفرس الشعوب الخاضعة خضوعا للملك ، تلك الشعوب التى كان قد ضُيق عليها من جهة الضرائب التى كان يفرضها عليهم امراء الملك سواء كانت تلك الضرائب نقودا أو أموالا أو بضائع أو لما كانوا يرون شبانهم يساقون بعيدا للمحاربة أو لان يموتوا فى الغربة أو اذا كانوا مكرهين على أن يحووا عندهم حامية الملك • واذا انتقلنا الى وادى الفراتين نرى ان جانبا عظيما من المعيشة القديمة كانت باقية على حالها بدون أدنى تغيير وكان الرجال يدوّنون أشغال تجارتهم وشؤونهم الشرعية حفرا على صفائح الفخار متخذين لها القلم القديم المسمارى • وكانت معامل الاقمشة البابلية تُعنى بامورها فيشتغل فيها مئات من الايدى السمراء وأما الهياكل القديمة فكنت ترى الكهنة الوطنيين • والظاهر من بعض الامارات ان هياكل بابل انحطت بعض الانحطاط فى عهد الكيانيين وذلك أما لان الملك كان على دين يخالف دين البابليين فكان هؤلاء يخافون أن يضع يده فى فرصة من الفرص

على كنوز الله وأما لان الكهنة كانوا يفكرون بعض الاحيـــان فى الارباح العائدة الى أنفسهم أكثر مما كانوا يفكرون فى أمر الله ورفعة شأنه واما الديانة نفسها فانها بقيت سائرة فى وجهها بدون تغيير فيها ويحافظ الدائنون بها على معتقدهم المقدس بخصوص الآلهة الملفقة وشعائر السحر والتنجيم وهم يتناقلون ذلك خلفا عن سلف وكانت بابل أيضا مركزا عظيما للتجارة فكأنها قرية نملٍ ونملها البشر ، ويتعذر رؤية مثلهم فى غير هذا الموطن • وقد قال أحد فلاسفة اليونان ان تبسُّط الامة يفوق تبسط المدينة • وما عدا ان بابل كانت مملوءة تجارة وصناعة وديانة وملذات فانها كانت أيضا نوعا ما سُرَّة العالم فأرض الفراتين الغريلية الغنية هذا الغنى والحافلة بالسكان والواقعة فى قلب البلاد المعروفة يومئذٍ لا يمكن أن تفقد امتيازها لانتقال صولجان الملك الى امةٍ غيرِ امتها • فكانت بابل الحاضرة الشتوية للدولة الفارسية وكان قصر الملك قصر نبوكدنصر الذى كان بجانب البساتين المعلقة وكان يقضى فيه ملك فارس أشهر الشتاء • وفى بابل كانت ترد الهدايا والالطاف من كل جانب يهديها كل من كان يريد المثول بين يدى الشاهنشاه فى ذلك الفصل من السنة • وقد قلنا ان السلوك المطرد سلوك بلاط الكيانيين هو ان يذهب الملك وحشمه الى شوشن حاضرة عيلام العتيقة فى فصل الربيع ثم يمعن مُصعِداً فى الجبال الايرانية اذا ما اشتدت حَمارة القيظ فينزل اصطَخْرَ فى اقليم فارس أو ينزل اكبتانة حاضرة بلاد ماذي فى قصرها الفاخر البديع ، قصر الارز المنيع •

## ديانة زَرَادُشت

ما كانت على التحقيق ديانة كورش والملوك الكيانيّة كدارا ومن جاء بعد ؟ ذلك سؤال يصعب الجواب عنه ! الا انه وجد ختماً بابلياً كُتب لكورش بعد أخذه بابل وقد عدَّه كاتبها عبداً مخلصا للاله « بَل »

وكورش وان كان يتكلم عن نفسه فى هذا الرقيم فان كاتبه كان كاهنا بابلياً بدون شك • ولعل كورش اذِنَ للكاتب أن يتصرف فى العبارة لغاية سياسية فمثَّله الكاتب عابداً لالههم ولا نعلم قدر ما فهم كورش من هذا الرقيم القديم الحرف واللغة اذ ان النص أكدى العبارة •

وقد قام فى ايران قبل كورش بعدة أجيال نبى اسمه زرادُشترا ( وبالصورة اليونانية زوروآستر ) وعلّم ديانة جديدة تقرب من ديانة اسرئيل أكثر من غيرها مهما كانت وتعلم أيضا وجود اله واحد فقط وتعني كل العناية بالصدق والعدل فتتحراهما فى كل ما تأمر به أو تفعله • ومن رأيها أن بين الخير والشر حرباً عواناً فى العالم وكذلك بين الله والشيطان • وتقول بحياة خالدة يكافأ فيها الاخيار كما يعاقب فيها الاشرار كل واحد بموجب عمله •

وكانت تقدر أعظم قدر الزراعة وتجعل لها مقاماً سنيّاً وبعملها هذا كانت تدفع عن الارض مَواتها ( وهو أمر شائع فى هذه الديار ) وتُعنى بعمارتها كل العناية فكنت تراها موقرة أثماراً جنيَّة وتهتم بتربية المواشى وتدفع عن البلاد القبائل الرحّل الغازية وابناء الشر • والظاهر ان الايرانيين كانوا يعرفون « اهورا مزدا » الروح الاعظم الهاً أكبر قبل أن يُبعث اليهم ذلك الرسول الاّ انه كان لهم زيادةً على ذلك شيء كثير من العبادات والشعائر يقومون بها نحو آلهتهم والهاتهم الوثنية وبينهم «مِثرا» الاله الآرى القديم • فلما جاء زرادشترا بدينه الجديد ازال كل هذه الزيادات وأقام مقامها ديانة أدبية ساذجة طاهرة قوية لاناس قد تفرغوا للمعيشة الزراعية • ولما توفي زرادشترا وانتشرت ديانته فى الارض أخذت تبتلع الوثنية التى كان قد نبذها الا انه دخلها بعض العناصر دونها مقاما ، فلم تتخذ آلهةً مثل مثرا فقط بل أيضاً مثل معبودة اللذات «اشتر» الالهة السامية الشمرية المشهورة.

التى سمّاها الايرانيون « اناهيتا » ولما اختلطت ديانة النبي الاصلية بالوثنية القديمة التى دخلتها دعا هذا الامر الى اصلاح فى علم الدينيات والعقائد بعد مضي زمن طويل على عهد الكيانيين ، وهذا الاصلاح يُرى اليوم فى كتب الفرس المقدسة . والظاهر كل الظهور ان الكيانيين وعلى الاقل منذ دارا الى ما بعده كانوا زرادشتيين من هذا النوع ولم تكن ديانتهم ديانة زرادشت الخالصة ولا الديانة الزرادشتية الاخيرة . ومما يؤسف له ان ليس بأيدينا مادة واضحة جلية ترجع الى عهد النبي أو تعرفنا ديانته كما ليس بأيدينا مادة واضحة جلية تعرفنا الوثنية الايرانية القديمة التى جاءت فانضافت الى تلك الديانة الصرفة .

هذا وان كانت زرادشتية الكيانيين واعيان الفرس قد تغيرت وتحولت عن أصلها الا انه يظهر انه كان فيها من المبادىء الزرادشتية قدر كاف لتكون اعلى من سائر ديانات الشرك فى آسية بآدابها وعلو مداركها . وعليه يكون دارا على ما ورد فى رُقمه صورة اهورامزدا الوحيدة صورة الروح الاكبر الذى يملأ السماء ـ اله الحق ـ ودارا هو عبده بمحاربته للكذب حينما يرفع رأسه . اما الآريون الارستقراطيون فانهم كانوا عبارة عن جماعة لها عوائدها الخاصة بها وكلها تنم عن شرف وشهامة نفس فكانوا فى بلادهم على جبال ايران المرتفعة أو على هضاب بلخ ( بقطريا ) والصُغد وكان لهم فيها قصور اجدادهم ومنهم كانوا متبددين فى الولايات الجنوبية من ولايات الدولة بمنزلة اقوام حاكمة للبلاد وقد تفرغوا جميعهم للفروسية والرماية بالقوس وصيد الدواب الكبيرة ولاشغال البساتين والفلاحة والزراعة ، وكانوا يحتقرون التجارة وكان مرمى أفكارهم عالياً ، فقد كان الكذب عندهم راس الخطايا بل يعتبرونه كذلك فى امور معيشتهم التى تتعلق بهم أو التى تتعلق بكل امرىءٍ يقع دون مرمى افكاره فكان اذاً اقصى أمانيهم الرقي فى معراج المعالي علماً وعملاً .

ويظهر انهم كانوا لا يلتفتون الى ديانـــة المشركين من رعاياهـم بل يتركونهم وشأنهم فيها • ولم يحاولوا ابداً محو الوثنية ( وكذلك الزرادشتيه الذين جاؤوا بعد ذلك ) وان كان خَشايَرشا ( اكزرسيس ) لم يَرَ بأسـا من احراق هياكل اليونان ونهب هياكل بابل بمنزلة عقاب وقصاص •

وفي وقعة بلادٍ كبلاد بابل فالحادثة التي جرت في عهد شرائع سلطة لم تحترم آلهة الاقدمين جعل الفتوحات التي افتتحها بجيوشه الفارسية اثراً لم يسبقه مثيل في الفتوحات التي وقعت قبـــل الوف من السنين على ايدي الأموريين والكشيين والعيلاميين والاشوريين •

## اليونان أو الهَلَّيْن

في الطرف الاقصى من الغرب كانت الدولة الفارسية في احتكاك مع اليَوانة ، كما تقدم الكلام عليه • وهذا ما كان يسبب قلقاً دائماً ، فسكان هذه المدن التي كان منها ، كانت دولة قائمة برأسها يشعرون دائمـاً بضيق شديد لكونهم ليسوا احراراً وهذا ما كان يدل على ان كل طائفة من هـــذه المدن الدول كانت ترغب في ان تستقل في نفسها وان لا يكون عليها رئيس يراقب اعمالها ويسيطر عليها سوى آلهتهم وشرائعهم المدنية • فقد كان في انفسهم احرّ الشوق الى العصيان • وفي الجانب الآخر من بحر ايجي كان اناس آخرون من عنصرهم يَطوُونَ بساط ايامهم في البلقـــان وهي دار اصل قوميتهم وتسمَّى بمعنى خاص هَلاّس وكان اليونان الذين في آسية يشتدون همة ويميلون الى العصيان كلما كان يَرِدهم من العون والتأييد من المدينة الواحدة أو المدن الكثيرة اليونانية الواقعة وراء البحر • وقـد كان تضافر هؤلاء اولاد الاعمام منذ البدء ، ولهـــذا كان الايرانيون الفاتحون واليوانة الجمهوريون في بحر الروم في نضالٍ وخصام وكان قـد صادف كورش وفداً قادماً من مدينة صغيرة من يوانة من غربي بحر ايجي اسمها

اسبرطة • وكان ذلك بعد فتح كورش لليدية • وكان نصف العالم المعروف يومئذٍ عند قدميه ، فقال له الوفد ان لا يضع يده على مدينة من المدن اليونانية لان الاسبرطيين لا يحتملون ذلك ، فبحث كورش عن هؤلاء الاسبرطيين فاتضح لـه انهم ليسوا من الناس الهائلين ففكر دارا وابنه خَشَايَرشا ان احسن وسيلة يتخذانها لقمع ثائرة ابناء هذا الطرف البعيد من المملكة ان يسحق اليونان فى بلادهم الاصلية ـ وهو امر لا يتعذر عمله بالنسبة الى مملكتهم هذه الضخمة ـ الاّ ان الجيوش التى ارسلها دارا لم تصل وذلك لان اهالي مدينة يونانيّة معروفة بأذيّتها اضطروا الجند الذين نزلوا على سواحل « اتيكة » العودة الى سفنهم من بعد أن كسروهم ، وتعرف هذه المدينة باسم اثينة ( سنة ٤٩٠ ق• م• ) ولما قاد خشايرشا نفسه جيوشاً اعظم عدداً وعُدداً الى بلاد اليونان على طريق تراقية ومكدونية نكب نكبة عظيمة • وكان بين صرعى حومة الوغى الذين جُندلوا فى وقعة پلاتيا ( سنة ٤٧٩ ق• م• ) جنود جاؤوا من بلاد الهند البعيدة • وكانوا اناساً دفعهم الى اختراق نصف ديار آسية ضباط ملكٍ تنحدر مياه تلاله فى نهر السند فقُضيَ عليهم ان يقضوا نحبهم على ضفاف نهر آخر الاّ انه يوناني وهو نهر اسوپس •

وبعد أن نكب الفرس هذه النكبة لم يفكر ملوكهم بعد ذلك بالزحف على الهَلاّس الاوربية • فصبروا انفسهم على القعود مدة جيل او جيلين لينسوا أو يتناسوا فشل خشايرشا وكانوا يرون المدن اليونانية الواقعة على بحر آسية تنفصل عنهم الواحدة بعد الاخرى ويحاميها فى عملها هذا ترابط بحري عقدت عُراه مدينة اثينة ، بيد انهم وجدوا لانفسهم وسيلة موقتة يفككون بها ما تحكم من حلقات تحالف يَوَانَةِ بلاد اليونان باثارة عوامل الغيرة والشحناء بين مدن اليونان الواحدة على الاخرى على ما هو متعارف فى هذه البلاد الشرقية من هذه السياسة القديمة العهد •

وكان الذهب الفارسي يُغري أي دولة كانت من الدول اليونانيـــة باختٍ من اخواتها اذا ما خامرها الطمع والعصيان • ولعلك كنت ترى فى بابل أو فى شوشن يوناناً غايتهم دسّ الدسائس بعضهم على بعض • وبهذه الوسائل تمكن الملوك الفرس فى آخـر الامـــر من اخضاع يونان آسية لصولجانهم مرة اخرى واكراههم على تأدية الضرائب وايواء الحاميـــة فى مدنهم • ولو كانت تلك المدن الساحلية يومئذٍ فى مأمن من كل هجوم أو غارة واذا عرضت فرصة لقواد الجيوش اليونانية أو لمرازَبةِ الفرس العصاة فى الغرب حادث خروج على الحكومة الفارسية فانهم كانوا يجدون دائمـاً أُجراءَ يوناناً يأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم • ولابد من شاهد على ذلك فان اخ ارتحشستا الثانى تربع على اريكة المملكة بواسطة جيش من الاجراء اليونان الذى بلغ به الى الفرات فى موضع يُسَامِت بغـــداد ( سنة ٣٩٩ ق• م• ) والحق يقال ان اليَـوانة كانوا جذوة نار دائمة وجرثومة اضطراب وفتن فى تخوم الدولة من جهتها الغربية وكانوا اشـدّ بلاء من الاقـــوام الطواريء التى قدمت من قلب آسية فسببت تلك القلاقل فى تخومها الشرقية واسوأ مغبَّـــة من الاقوام العتاة اقوام الهضاب مثل الكُشيين الذين كان يدفع اليهم الخراج الملك الاكبر نفسه لمـــا كان يذهب الى بابل واصطخر ماراً بديارهم الجبلية • اما نحن الذين ننظر الى اعمال هذه الدول الهَلّنيَة كانها مقلقة كل الاقلاق لبابل وشوشن فاننا نعلم الان انه كان ينشـأ يومئـذ فى اذهان اولئك الناس ما يؤهلهم لان يكونوا ذوي نفع عظيم لابناء آدم اكثـر من سائر الاقوام الموجودين فى ذلك العهد فى ديار الملك الاكبر ، اللهم اذا استثنينا منهم تلك الشرذمة التى كانت قد احدقت بهيكلها القائم على هضاب يهودية الغبراء • فان اولئك الناس اليونان كانوا قد ولجوا مقاماً جديداً من الافكار فى تلك المدن اليونانية مقاماً نسميه اليوم « تمدن الغرب » مـــع سيادته العظمى على الطبيعة المادية التى هى من نتيجة • وشرعوا يحررون

أفكارهم مما كان يُنقل عن السلف من العوائد والسُنن وهو امر لم يسبقهم اليه سابق ، وكانوا يمحصون كلّ شيء تمحيصاً عقلياً •

وممن اشتهر منهم طالس من مِليطِس احدى مدن اليونان الواقعة على الساحل الاسيوي وكان قُبَيلَ كورش ، وقد حاول ان يحصل على تأويل طبيعى عوضاً عن التأويل الخرافي المنقول عن السلف بخصوص اصل العالم وذهب الى أن كل شيء صُنع من الماء المتخثر قليلاً أو كثيراً •

لا جرم ان هذا التأويل تأويل أعمى لكنه كان مُنبثَق العلم الحديث ، وكان اليونان قد بدأوا ايضا يفكرون بأمر الخير والشر الواقعين بين الامم ليعرفوا سير الدول وتنظيمها •

ولم يكف القول بالقاء الكلام على عواهنه كما فى السابق زعماً « ان هذا ما نقله الينا آباؤنا » بل انهم رفعوا المسألة الى قولهم « ما احسن هذا الامر على الحقيقة بالنظر اليه نظراً عقليا » فالجَري على هذا الوجه من تدبّر الامور كان فيه مستقبل رقي دائم ، وحقيقة بدأ اليونان ينظرون الى الطبيعة بعين غير العين الاعتيادية بل بعين مفكرين ومتفننين ماهرين ليكونوا جديرين لان يمثلوا الاشياء ولا سيما هيئة الانسان بصورة أقرب الى الحقيقة وأدنى الى مرمى الفكر ، فالصناعة اليونانية فى نطاقها المحدود بلغت من الكمال مبلغاً لا يجارى ان كان من جهة ادراك الحقيقة المنشودة ، وان كان من جهة شعورهم بالجمال ، فلقد ابرز اليونان فى ايام الدولة الفارسية محاسن الآداب اللغوية العظمى ما جعلها اساساً للآداب اللغوية الحالية لا سيما فى اوربة • ولقد وجد نتاج عقلهم هذا معدنا فى مزاجهم الادبي الخاص بهم ، ولا سيما فى مزاج بعض المزج بالوطنية الضيقة والمتعصبة التى كانت تكره أشد الكراهية فكر من يجعلها دويلة صغيرة ، يكون لها استقلال مطلق وان كانت قد حُصِرت فى دائرة ارض اكبر منها لكنها مع ذلك كانت تلقي

في صدور اليونان من الشعور بمنزلتهم لكونهم اناساً احراراً ما كان يجعلهم أن يشعروا أعلى مقاماً من الاسيويين الذين كانوا يرونهم يخرون سجداً لرؤسائهم البشر وذلك امر كان اليونان يستنكفون منه ولا يريدون أن يقوموا به الا امام صور الهتهم (١).

فمن كل هذا تقومت الحياة اليونانية ـ اخلاقياتها وعقلياتها الجديدة وصناعياتها وادبياتها ـ وهذا ما نطلق عليه اسم « الخصائص الهلنية أو اليونانية » ويمكننا أن نقول ان في اليوم الذى مثل رسول اسبرطة بين يدي كورش في سردس بدأت منازعة عظيمة لامتلاك غربي آسية الصغرى وهي منازعة قد قُضيَ عليها ان تدوم اكثر من الف سنة بين القومين اللذين يمثلهما كل من الرجلين اللذين يمثلان الهلاس وايران • ولقد فات ملوك الفرس الكيانيين بدون شك • ان الهلنية تجاذبهم امتلاك آسية ولقد فاتهم ذلك الى آخر ملك من ملوكهم •

وقد كان اليوانة قلقين غاية ما يكون الا انهم كانوا بعيدين بعضهم عن بعض وغير متفقي الكلمة • والذى كانوا يستطيعون أن يتمكنوا منه هو إغتصاب بعض ايالات بعيدة عن الجسم الكبير جسم المملكة الضخمة بدون أن يقدروا أن يضعوه في كفة ميزان الحكام الايرانيين • ولا جرم ان الفرس عرفوا ما لحضارة اليوانة من القدر والمقام ولو بعض المعرفة ، يشهد على ذلك

---

(١) كان ذلك ناتجاً بدون أدنى شك من هيئة التكفير ( وهو أن يخضع العلج للملك بأن يضع يده على صدره ويطأطىء رأسه ويتطامن تعظيماً له ) فتصور اليونان ان السوقة من الايرانيين يعبدون ملكهم ويسجدون له سجودهم لله • والحال ان ملوك الفرس لم يطلبوا ابداً أن يكونوا فوق حالتهم اى عبيداً للروح الكبير « اهورامزدا » وانما اليونان المنحطون عن منزلتهم هم الذين ادخلوا في آسية اليونانية اعمال تأليه الملوك •

ان الفرس كانوا قد ابقوا عندهم في قصور ملوكهم بعض اطباء اليونان لما شاهدوا فيهم من الكفاءة والاطلاع • وكان أغلب الايرانيين احتكاكا باليوانة الاشراف منهم الذين كان لهم غنم في آسية الصغرى والذين ربطتهم منفعة انفسهم في المعاملات اليومية او في الافكار الجديدة التي دخلها هؤلاء الناس المتنوزرون فاننا نسمع بعضهم يتكلم عن رجل اسمه مثريدات يمثل المدرسة الافلاطونية في اثينة مع تمثال للاستاذ ولعله هو نفس الرجل الذي لُقِب بلقب « مدني أثيني » باتفاق آراء اهالي اثينة ، في الوقت الذي لقب بهذا اللقب نفسه ابوه « أرْيُوبُرْزان » • لكن هذا كله لم يَحدُ بالايرانيين الى أن يفكروا بأن اليونان يكونون دولة تمكنهم من السيادة في آسية • اما في بلاد اليونان نفسها ( اغريقية ) فكان قد انتشر في النصف الاول من القرن الرابع ان تخاذل اليونان هو الحائل دون سيادتهم التي تمكنهم من القبض على أعنة العالم ولذلك قامت دعوة الى بث الاتحاد بين جموعهم كلها فكانت حقيقة دعوة الى الجامعة الهلنيّة تضافروا فيها ليحملوا على الايرانيين حملة واحدة • وقد عرض ايسْكراتس الهجاء ملك مكدونية ليكون على راس هذه العصابة • وكانت مكدونية يومئذٍ مملكة مرتبطة اهاليها باليونان نسباً دموياً وكان رؤساؤها المدبرون لشؤونها قد انحازوا الى الهلنية في قسمها الاعظم •

## اسكندر الكبير

تحقق بين سنة ٣٣٣ و٣٢٣ اكثر مما تصوّره ايسكراس وذلك ان ملكا مكدونيا قاد عساكر مكدونيّة وقوات أُخذت من الممالك اليونانية فافتتح بها الدولة الكيانية ، بل تجاوز ذلك الملك الضخم ووصل البنجاب والسند • وفي نحو آخر ملكه يظهر ان اسكندر عقد النية على أن يجعل دولته العظيمة خليطاً من الهلنية والايرانية • وكان يُبدي التفاتاً خاصاً الى

الاشراف الايرانيين وحاول ادماج العنصر الايراني بالعنصر المكدوني بواسطة الزواج واسكندر نفسه اختار لنفسه زوجاً له اميرة من شرقي ايران ( افغانستان ) وفي بعض الحفلات المشهودة لبس ثياباً فارسية وأقام محافظاً على عادته مقدراً كل التقدير العلم والصناعة اليونانيين ومُنَشِّطُهما ولا سيما لانه تلميذ ارسطوطاليس ، وأقام في النقاط الخطرة من نقاط طرق المواصلات خلال اراضي المملكة نظاماً من المدن الجديدة على الطراز الهلني ، وجعل غالب أهاليها المكدونيين واليونان .

والظاهر انه كان في نيته أن يبقي بابل قاعدة لتلك المملكة لان موقع ارض الفراتين الغريلية تبدو مركزاً لها . فهناك كان قد صمم الاسكندر على هذه النية حينما عاد من الهند سنة ٣٢٣ وكان يفكر في فتوحات جديدة والتبسط في طول الارض وعرضها ، وحفر احواضاً جديدة لتحسين شؤون سقي اراضي بابل وتطهير دجلة لتسهيل سير السفن عليه . وبينما كان مفكراً في هذه الامور وتحقيق هذه الخطط الجليلة احتضر في بابل قريبا من الفرات في قصر نبوكدنصر المبني بالآجر الملون الرائع .

## الهلنية في عهد السلوقيين

كانت الاريانية قابضة على كل غربي آسية في صدر المنازعة بين الهلنية والاريانية في عهد الملوك الكيانيين وكانت الهلنية يومئذٍ سبب قلق واضطراب على تخومها . وبينما كانت الامور تجري في اعنّتها اذا بالستار قد ازيح فجأة فظهر من كان وراءه ، ظهر اسكندر الكبير فكانت الهلنيّة في مظهرها الثاني سيّدة الكل . وما عتم ان بدا مظهرها الثالث فاذا بالايرانية تسترجع رويداً رويداً في عهد الدولة اليونانية المكدونية التي ورثت ملك اسكندر الكبير ، ما كانت قد فقدته من الارضين وبعد منازعات

دامت نحو اربعين سنة تقلبت فيها الاحوال تقلبات شتى اسفرت فى الآخر عن نشوء ثلاث ممالك قواد اسكندر الكبار ، وهم الذين كانوا تتبعوه الى يوم وفاته وهذه الممالك هى : الاولى تشمل مكدونية وتراقية • والثانية المملكة التى أسسها بطليموس أى مصر وفلسطين • والثالثة هى مملكة سلوقس ، ثم أخذت هذه المملكة الاخيرة بالتنازل والانحطاط حتى دام ذلك مدة ثلاثة قرون متتالية • اما الهلنية فانها لم تفقد شيئاً بل كسبت شيئاً يذكر فى عهد الملوك السلوقيين الا انها مع ذلك كانت تنسلخ عنها الولاية بعد الولاية لتنضم الى الملوك الايرانيين أو الى ملوك تلك الاصقاع •

الا انه فى الوقت عينه كانت تؤسس مدن يونانية جديدة فى آسية أو كانت تشيد المدن القديمة على طرز يوناني وهو الشغل الذى كان قد بدأ به اسكندر فبقى سائراً فى وجهه • والمزايا الهلنية ـ اللغة اليونانية ، والتخلق بأخلاق اليونانيين، وحالتهم العقلية وصناعتهم ـ انتشرت انتشاراً اعظم وكانت تتوغل كل التوغل فى قلوب الشعوب الآسيوية الموجودين فى السلطنة السلوقية بل فى قصور ايران نفسها التى كانت تقوم مقام الدولة السلوقية فى مواطن عديدة كان خليط من الهلنية قليلاً او كثيراً حسب مقتضيات الاحوال •

وفى بلاد بابل خرب سلوقس مدينة بابل نفسها تلك المدينة القديمة وان شئت التحقيق فى الكلام قل نقل تلك الحاضرة الى موطن يبعد ٦٣ ميلاً فبنى مدينة جديدة على دجلة وهى التى سميت بعد ذلك سلوقية • وكان فى المملكة عدة سلوقيات اخرى لكن هذه كانت اكبرهن واوسعهن واشتهرت باسم « سلوقية على دجلة » وكانت قاعدة نصف دولة الشرق ، واقرب الى جبال ايران من انطاكية السورية اليها • ولا جرم ان سكان بابل الاقدمين انتقلوا الى الحاضرة الجديدة • الا انه بقي فى ذلك الخراب الذى كان يزداد

يوماً بعد يوم جماعات من الكهنة تحافظ على شعائر دينها القديم فى مدينة نبوكدنصر القديمة وتقوم بما يندب اليه الدين فى الهياكل والابراج التي كانت تُبدي رؤوسها من بين سائر الابنية وقد حكم عليها القضاء بأن تنحط رويداً رويداً فى دركات الخمول والوحشة واما سلوقية فانها كانت تفتخر بكونها مدينة يونانية ولما مضى على تأسيسها ثلثمائة سنة فصارت الى ايدي البرث قال عنها أحد كتبة الرومان انها « دليل بيّن يدفع نفوذ البرابرة وانها مملوءة من ذكرى مؤسسها » ومنها انبثق نور مدنيّة جديدة طافحاً على انهر وبساتين ارض شنعار القديمة •

وكان ديوجينس احد اعاظم كتاب الرواقيين وراس مدرسة الرواقيين فى آثينة ( سنة ١٥٦ ق• م• ) « بابلياً » أى انه كان ابن سلوقية على دجلة• وكثير من البابليين تلقوا علومهم وآدابهم اليونانية فيها ، منهم كاهن بابلي ايضا اسمه بيروسس فانه كتب تاريخ بلاده باليونانية وقدمه الى أنطيوخس الاول ابن سلوقس ، واشتهر ايضا سلوقس وهو عالم رياضي وفلكي وكان قد فكر قبل كوپرنكوس بان الارض وسائر السيارات تدور حول الشمس• ولعله كان بابلياً •

ولو أخذنا طريق سلوقية بمائتي سنة قبل المسيح ذاهبين الى ماذي والى فارس للاقينا مدينة بعد مدينة وسكانها نصفهم يونان ونصفهم وطنيون ولسانهم الرسمي اليونانى وابنيتهم على الطرز اليونانى كما انك كنت ترى فى تلك المدن مدارس ومعاهد ومسارح لهوٍ كلها يونانية • وفى أيدينا أمر صدر فى نحو سنة ٢٠٦ ق• م• من مدينة انطاكية الواقعة على الهضاب الجنوبية الغربية من بلاد ايران ويحتوي على كل النظامات السياسية الاساسية التى يمكن وجودها فى مدينة يونانية تسير فى وجهها سيرها المعتاد • وبين المدن اليونانية في ديار بابل يومئذٍ كانت « أرطمية » في

الارض التى يطأها اليوم الجنود البريطانية بين بغداد وخانقين ومنها نبـغ المؤرخ أپلّتودُوْرُس وكان السند المكين والعضد الرصين فى تاريخ البرث فى عهد التاريخ المسيحي •

على أن الهلنية وان تقدمت تقدماً خطيراً بعد اسكندر الكبير منتشرة فى الطول والعرض الا انها خسرت من جهة الصفة • لان حياة هذه المدن اليونانية المنتشرة فى آسية كانت ولا شك فى ذلك ظلاً ضئيلاً للحياة فى آثينة فى عهد افلاطون وفى العهد اليونانى منشىء النشأة المشهورة •

وكان اللسان اليونانى وآدابه يحوي طائفة من الافكار وان كان لم يَزْدَدَ ، وكانت الشعوب الاسيوية تشعر عموماً بأساسه فوق ما يتصوره اهالي البلاد الذين نقلوا اليهم ما تلقوه عن السلف من هذا القبيل •

## انحلال الدولة السلوقية وظهور البرث

بقيت الدولة السلوقية ثلاث قرون متوالية وهى تنازع وَيدب فى اعضائها عوامل الانحلال على ما اسلفنا القول • ففى الشرق اضطر سلوقس مؤسس سلوقية الى أن يسلم ايالات اسكندر الهندية الى الملك الهندى شَنْدْرَاغُبْتَا الذى كان هو بنفسه مؤسس دولة جديدة فى الهند وكانت قاعدتها بطنة على نهر الكنج التى ابتنى فيها ملكها شندراغپتا قصراً على طرز قصور ملوك فارس على ما أظهرته لنا الحفريات الجديدة • وانفصل عنها أبعد الايالات عن ايران ( وهى بلخ والصغد الواقعتان فى شمالي افغانستان وايالة بخارى الحالية ) وذلك فى نحو سنة ٢٥٥ ق• م• فى عهد ملوك يونان اصلهم من هذه البلاد • ( وهذه الهلنية هلنية الشرق الاقصى بقيت فى وسط ملوك اجانب أو برابرة وان كانت قد قطعت عن الجسم الهلني الاصلي مدة تنوف على مائتي سنة والاثار الباقية من هذه الهلنية هى انواط ونقود معاصرة

للتاريخ المسيحي وكانت قد أبدت سيادة موقتـــة على أعظم قسم من شمالي الهند اكتسب فيه اليوانة شهرة فى آداب اللغـــة الهنـدية القديمـة ( أى السنسكريتية ) « بمنزلة محاربة لليونا محاربة سيئة » وصبأ الملك اليونانى منذر الى الدين البوذي وتبوّذ ( ويذكر فى الآداب البوذية المقدسة باسـم الملك ملِنْدة ) وفى سنة ٢٤٨ أغار على ايالة پرثية ( خراسان الحاليـة ) قوم أقبل من الفيافي متصل نسبا بالايرانيين وأسس قائدهم أَرْشَك دولة مستقلة بقيت تنمو بقدر ما كانت تمتصُّ قوى الدولة السلوقيـة والدولـة اليونانية البلخية وكان لهذه الدولة نوع من الزرادشتية ( المجوسية ) وهى تظهر لشعب ايران ممثلة للمسألة القومية ومقاومة للاوربيين ، لكن الفرس لم ينظروا ابدا الى الارشكيين نظرهم الى ملوك فرس حقيقيين لما فى دمهم من البداوة وقد ابتلعت الدولة الارشـكية فى پرثية اولا جارتها هركانية ، وهى الديار الكثيرة الخراج من منحدرات شمالى جبال البرز نحو بحر قزوين ( وهى المعروفة اليوم بمازندران ) وفى عهد ملكها مثريدات الاول ( نحو سنة ١٧٠ - ١٣٨ ق ٠ م ) ربح اعظم القسم من شرقى ايران آخذاً اياه من يونان وبلخ ( بقطرية ) ٠ وفى عهد الملك المذكور خرج الحكم السلجوقى من بلاد ماذي ٠ واما بلاد بابل فقد تنازعتها الايدي مرارا عديدة لـكنها كانت للسلوقيين فى سنة ١٤٤ ق ٠ م ٠ الا انـــه يظهر انهـــا انتقلت الى البرث قبل سنة ١٤٠ وفى تلك السنة استرجعها ملك سلوقى وبعـد سنتين وجد ان صاحبها مَلِكٌ باسم ارشـك (١) على وجه ذلك فى رقيم كتب بالقلم المسمارى القديم ٠ ثم استرجعها للمرة الثانية آخـر ملوك السلوقيين وهو الملك الصنديد انطيوخس سيديتس فى سنـة ١٣٠ ، بل وتتبع البرث

(١) يتخذ جميع الملوك البرثيين اسم ارشك بمنزلة اسم ملكى ثم يضيفونه الى اسمهم الخاص بهم ٠

وطردهم من غربى ايران • وهناك انكسر هذا الملك وقتل فى السنة التالية. فعاد البرث الى بلاد بابل وانتقموا انتقاما عظيما من مدينة سلوقية التى كانت قد تخرّبت للدولة المالكة اليونانية •

ومنذ ذاك الحين الى اربعـــة قرون ملك البرث ايـران وبلاد بابل واصبحت دولتهم اعظم دولة فى الشرق والارجاء التى كانوا قـد افتتحوها كانت مغشاة بالمدن اليونانية على ما المعنا اليه سابقا •وبهـذا المعنى عُمّرت الهلنية طويلا فى عهد الحكومة « البربرية » مدة اجيال فى الايالات التى فقدها اليونان • ونظن ان تجارة المملـكة البرثيـة بقيت فى ايدى اليونان واظهر الملوك البرث الاخيرون التفاتا عظيما للعنصر اليونانى باتخاذهم اتخاذا مطردا لقب « محب اليونان » وقبولهم ايـاه كل القبول • لـكن مهما كان يستطيع ان يفعله الارشكيون فى هذا المعنى لجلب قلوب رعاياهم اليونان اليهم فان اليونان كانوا يُخيرون دائما عليهم كل فاتح اوربى •

## ارمنيـــة

فى شمالي الجزيرة واقعـة الاقطار الجبلية المعروفـة بارمنية او ببلاد الارمن وكانت احدى ايلات مملكة اسكندر الكبير وفى عهد الدولة السلوقية الاولى نجد فيها سلالة ملكية فارسية وطنية وقد قبضت على صولجانها وكانت مرة مستقلة ومرة تودى الخراج للملك السلوقى حسب مقتضيات الاحوال• وبعد ان اضمحلت هذه السلالة فى نحو سنة ٢٠٠ ق • م قبض على اعنة البلاد مدّة رجلان من قبـل الملك السلوقى وكان لهما اسمان ايرانيان • ولعلهما أُخِذا من اعيان ايران او من ارمن البلاد • وفى سنة ١٩٠ ق •م لما حاولت الدولة السلوقية مناواة رومة فنُـكبت تلك النكبة العظيمـة فى مغنيسية اقتسم حاكما ارمنية وهما ارتحشياس وزريادريس • ولما استقلا

ابتنى ارتحشياس فى وادى الرس مدينة جديدة سماها ارتحشيانا بناها له هنيبعل ( انيبال ) الكبير وكان يومئذ افّاقاً على ما نقله لنا التاريخ • ومنذ ذاك العهد خرجت ارمنية من أيدى السلوقيين ، الا برهة من الزمن اجبر فيها انطيوخس ابيغانس ارتحشيا على اداء الخراج • وفى سنة ٨٣ ق • م كان قابضا على زمام الاحكام تكران الملك ، وهو من صلب أرتحشيا وهو الذى ازال الملك من سلالة زريادريس وضم الى جناحيه كل الاراضى التى كانت فى عهد الفرس بلاد الارمن فى الاصل • ومن ثم ذهب ليفتتح الجزيرة ويأخذها من الفرس •

## دولة آسية الصغرى

رأينا فى ما اسلفنا من الكلام ان بعض بيوت اكابر الفرس كانوا قد اتخذوا لهم قصورا واراضى فى بلاد آسية الصغرى فى عهد الكيانيين ولما وقع الاضطراب والارتباك بعد وفاة الاسكندر اقتطع بيتان من هذه البيوتات الفارسية مملكتين سلخاها من الارض التى كانت قد أنشئت ايالات مكدونية قبل بضع سنوات • وأحد هذين البيتين هو الذى اشتهرت ملوكه باسم « ارْيَارَاط » وصاروا ملوكا لديار كپدوكية السهلية فى جنوبى وادى « الايْرس » • وكنا قد رأينا قبل ذلك ان هذه الديار كانت يوما فى ايدى الاشوريين وكان اهلها من عنصرين معروفين فى التوراة باسم « ماشك » « وتوبل » ( وفى النسخة اليونانية « مشكي » « و تيباريني » ) وكانوا قد اصبحوا فى عهد دولة الفرس قوما من المماليك يحرثون اراضى اعيان الفرس من كهنة وعوام وكانوا قد قسموا كپدوكية الى ارض زراعية واسعة وبنوا فيها قصورهم وضيعهم • واما السلالة الملكية الاخرى فانها اقامت فى كبدوكية الجبلية فى الشمال وهى الديار التى عرفت بعد ذلك باسم « پنطس » ( والعرب تسميها نيطش من باب التصحيف ) وانما سميت

پنطس أي الجسر لانهـا ممتدة كجسر عـلى طولَ ساحلِ البحر الاسود ، ومؤسس هذه الدولـة هو مثريدات والظاهر انه كان ابن مثريدات الذى اهدى تمثال افلاطون لاكادمية اثينة فى عهد الدولة الفارسية وكانت سلطته قد ارسخت كل الرسوخ فى اودية الشمال مدة اربعين سنة منذ وفاة اسكندر الكبير •

ان اقامة هتين الدولتين الفارسيتين فى آسية الصغرى تمثل ولا جرم فى ذلك اعـادة تصريح العنصـر الايرانى بمنـاوأة العنصـر اليونانى الى درجةٍ ما • ومع ذلك فانجبال الوصال بين قصر السلوقيين وقصري الپنطيين والكپدوكيين كانت على احسن مـا يرام من الصداقـة وكان السلوقيون يصاهرون البيتين وكانت السلالتان الفارسيتان من جهتهما تأخذان شيئاً غير زهيد من مظاهر تلك الحضارة السائدة يومئذٍ وكانتا تجريان فى الخارج على الرسوم المتبعة الجاريـة فى القصور الهلّنيـة فى ذلك العهد وكان قصـر الپنطس اول قصور الدولة التى رحَّبت بالهلنية ترحيبا واسعا وكان باتصال عظيم بالمدن اليونانية الواقعة على ساحل البحر الاسود مثل « تراپيزس » ، « وسينوپ » ، « وهرقلة » اما الدولة الكپدوكية فكانت خارجاً عن مجرى حوادث الدنيا وكانت اقرب الى مبادىء الحياة منها الى الحالة العصرية ولهذا رحبت بالحضارة اليونانية اكثر من اختها وذلك على ما قيل لنـا لان أميرة سلوقية زُوّجت لارياراط الرابع وذلك بمائتى سنة ق • م •

وفى الزاوية الشمالية الغربية من آسية الصغرى فى « بيثينية » ارض هضاب قد غشتها اشجار الصنوبر وقـد قامت فيها سلالة ملـكية من البلاد نفسها فى عهد الملوك الكيانيين • ولم تكن من بيتٍ ايرانيّ الاصل لكن من بيت من البلاد نفسها ويتصل دمها بدم شعوب بيثينية وهى شعبة صلبة على الحالة الاولى من الاصل الهندى الاوربى وهم اولاد اعمام التراقيين لحـّـاً

الذين كانوا قد احتلوا الساحل الآخر من البصغور • ففى الفترة التى صارت بعد الاسكندر سار الرئيس البيثيني سيرة ملك • وفى صدر ايام الحكومة السلوقية حوّل نيقوميدس ملك بيثينية (فى نحو سنة ٢٨٠-٢٥٠) رسوم قصر بيثنية وجعلها على مثال الرسوم الهلنية المقبولة • والنقود التى ضربت فى عهده تصوره لنا بصورة ملك يونانى محلوقاً كل الحلق [١] ومتوّجاً بعصابة بسيطة • وهو الذى اسس مدينة جديدة باسم «نيقوميذية» على خليج بحر مرمرة وهى التى صارت بعد ذلك مدينة كبيرة من مدن الدولة الرومانية واسمها باقٍ الى اليوم لكن بصورة « ازميذ » المصحفة وهى فى تركيا •

ونرى سلالة رابعة ملكية قائمة فى شبه جزيرة آسية الصغرى فى عهد نشوء الدولة السلوقية • ففى هذا العهد اتخذت سلالة يونانية تسمي ملوكها باسم « اتّالس » او « أُوْمَنَس » حاضرة لها مدينة « پرغمن » • وكان هؤلاء الملوك قد أخذوا على انفسهم ان يناصبوا السلوقيين وكان ظل سلطتهم يمتد فى شبه الجزيرة او يتقلص حسب قوة او ضعف الملك السلوقي وكانت غايتهم ان يظهروا فى پرغمن هَلَنِيَّة على مثال اخلص وأشد اتيكيةً مما كان يرى فى مدينة انطاكية الصائر نصفها شرقية • ولما اخذت الدولة الرومانية ان تتسلط على آسية الصغرى انحازت پرغمن الى رومية كل الانحياز •

وبعد معركة مغنيسية التى وقعت ( سنة ١٩٠ ق • م ) لما اضطر الملك السلوقى انطيوخس الثالث « الكبير » ان يتخلى عن سلطته كلها باسرها •

---

(١) اتخذ اسكندر الكبير عادة حلق رأسه كل الحلق فى العالم اليونانى وبعده كانت عادة العالم العلمى ( عند اليونان بعد عصر اسكندر ، وعند الرومان بعد نهاية الحرب الپنيقية ) • وعادت اطالة اللحى مرة اخرى مع انطونينس من الاباطرة الرومانيين فى المائة الثانية بعد المسيح •

على آسية الصغرى ما عدا قليقية اهدى الرومان تلك البلاد للاتاليين ولما توفى الملك الاتالي الاخير اي اتالس الثالث ( سنة ١٥٣ ق • م ) اوصى بمملكته للشعب الرومانى فاصبحت ايالة رومانية جديدة باسم ( آسية ) وعلى هذا الوجه أصبحت رومة ذات سطوة آسوية كما هى ذات سطوة اوربية • على طول القسم الجنوبى من شبه جزيرة آسية الصغرى تتصل حلقات جبال الطورس وكان سكانها اناساً مغاوير ولا سيما من كان منهم من الانجاد العليا ، فان السلوقيين لم يستطيعوا ان يتسلطوا عليهم الا تسلطاً لا عبرة فيه • فالذى كانت تملكه الدولة السلوقية فى آسية الصغرى ملكاً صادقاً منذ سنة ٢٨٠ الى سنة ١٩٠ ق•م• كان ( بدون أن يدخل فى الحساب السهل القليقى الذى يمتد بين يدى جنوبى الطورس فانه كان يعتبر داخلاً فى سورية لا فى آسية الصغرى ) عبارةً عن شقة تخترق قلب البلاد بين جبال الطورس فى الجنوب وممالك « كپدوكية » و « پنطس » و « بيثينية » فى الشمال • وخلال هذه الشقة كانت تمر الطريق الواسعة التى كانت تصل الموانىء اليونانية التى على الساحل الغربى بسورية والجزيرة على طريق سردس حاضرة الحكومة السلوقية فى آسية الصغرى • وكان للملوك السلوقيين بعض السطوة على مدن يونانية كثيرة أو قليلة من مدن الساحل وفى هذه المدن ايضا كان يخاصم السلطة المصرية فيها كما كان يخاصم ملوك بيت اتالس ويخاصم ايضا رغبة كل مدينة من هذه المدن اليونانية فى الاستقلال •

كل ما ذكرناه يصور لك اسية الصغرى فى عهد الحكومة السلوقية التى كانت فى غاية الارتباك وكانت عرضة للتغير والانقلاب المتمادي • وزادت الامور ارتباكاً وتعرقلاً بغارة الغاليين ــ أو على ما يسميهم اليونان الغلاطيين الذين انحدروا من البلقان الى اغريقية ( بلاد اليونان ) والى اسية

الصغرى بين سنة ٢٨٠ و ٢٧٧ ق٠م٠ وهذه الغارة كانت أحد هذه السيول الجارفة من سيول عالم الهَمج التى كانت تشن من اهوالها المدنيات القديمة كما ذكرنا هذا الامر فى موضعه مثل غارة القِمرّ بين الشعواء وغارة الاسكوثيين الجاحفة وكلتاهما كانت قبل عصور ومثل غارة الغوط والوَندَلُس ( الوَندَال ) فى القرون المتأخرة • وقد كان وقت اجتاح فيه الديار المفتوحة من اقطار آسية الصغرى القَلْط واكتسحوها اكتساحاً وكانوا اناساً من الشمال صناديد عراة وكانوا بعض الاحيان لابسين لباساً غريباً وكان لون شِعَارهم بغير لون سراويلهم وكان رداؤهم معقوداً بدبوس على كتفهم وشعرهم تبنيّ اللون ويدهنونه دهناً الى أن يقف وقوفاً كأنه شعر الغول ( أو السعلاة ) وقد اتفق ان جميع الملوك والامراء ومدن آسية الصغرى ناوأت هذه الطوارىء أو قاومتها الى ان أُحدِقَ بها الآخر من كل جهة وقذفت قذفةً واحدة فى الداخل أو أُذن لها أن تنزل قسماً من البلاد التى سميت « فريجية » لانشاء « غلاطية » جديدة برئاسة زعماء قومهم وحول مدينتي « انكرة » ( وهى انقرة الحالية ) وپستينُس •

## سلوقس وبطليموس : مسألة فلسطين

صادفت السلطة السلوقية فى جهة الجنوب دولة اخرى مكدونية عظيمة وكانت قد انشئت من بقايا دولة الاسكندر ، وهى مملكة بطليموس وذلك انه بعد وفاة الاسكندر تقاسم ملكه قواده العظام فانتخب بطليموس أحد قواده المكدونيين بلاد مصر وكان اعلاهم كعباً وأشدهم كفاءة وأذكاهم سياسةً فكان بها غنياً ثرياً لغنى تلك الارض ولانه فى موضع حريز حصين لوجود صحراء بين مدالث النيل وبين فلسطين • فهذه المزية الاخيرة نفعت بطليموس منفعةً لا تقدر فى ايام العُسر فيها : اولاً لما زحف على مصر بردكّاس وصيّ الاسكندر بجيش جرار ليُذل بطليموس وهجم عليه

ثلاثاً من جهة ساعد النيل المائل الى الشرق ، فخـاب في هجـومه ، وفي الآخر تمرد عليه جنده أنفسهم وقتلوه ( سنة ٣٢١ ق • م • ) • ثانيا في سنة ٣٠٦ لما حاول انطيغو'نس أخذ مصر من جهة فلسطين وانطيغونس هذا اقدر القواد المكدونيين الطامحين الى ملك الاسكندر كله بحذافيره ، وهـو ايضا لم ينجح ، وذلك لاخفاق سعيه عند الحدود • ويظهر انه من الضرورى أن يملك بطليموس على قبرص وفلسطين كأنهما تابعتان لديار مصر وبهذه الصورة تكون له اليد العليا على قسم من الطريق التجارى التى تمتـد من خليج فارس الى غزة ولاسيما لانه كان في حاجـة الى الخشب لاسطوله ـ وهذه المادة قليلة الوجود في مصر ـ واما في قبرص ولبنان فانها وافـرة في ذلك العهد • واحتلاله لفلسطين دفعه الى أن يتهـوَّر بدون رَيْب لخروجه عن قلاعه وتحصيناته المصرية • ولما كان بطليموس الاول حـذرا ومتيقضاً فانه كان يحتل البلاد طالما يخلو له الجـو كما خـلا له في ايام الاضطراب لكن حالما يرى انّ خطر الهجوم يحدق به يترك الديار ويعود الى مقره بدون تريّث • ولما كان قد تقدم بعض التقدم ذات مرة رأى ان في الطريق ما يحول دون مجاوزة تخوم جنوبي فلسطين والحائل كان جيش ديمتريوس الشاب ابن انطيغونُس فكسره في المعركة الشهيرة التى وقعت في غزّة ( سنة ٣١٢ ق• م• ) ولما مات سلوقس ( سنة ٢٨١ ق• م• ) كان بطليمس الثانى قد ملك فلسطين فادعى بها بيت سلوقس ، ومنذ ذاك الحين اصبحت مسألة فلسطين ارض الخصام والشجار بين الدولتين المكدونيتين كما كانت في الاعصار السابقة سبب نزاع بين فراعنة مصر القديمة وبين ملوك اشور وبابل •

وفي خلال أغلب سني القرن الثالث قبـل المسيح بقيت فلسطين في أيدى البطالسة • وفي زحفتين زحفهما انطيوخس الثالث « الكبير » الملك

الشاب ( وذلك فی سنة ٢١٩ و٢١٨ ق٠ م٠ ) استأصلها من ايدى بطليموس الرابع بفضل پولبيوس الذى ابلى بلاء حسناً فی تلك الوقعة ٠ وفی ربيع سنة ٢١٧ ق٠م٠ كان السلوقي مالكاً المدينتين المتاخمتين « غزة » و « رفح » غير انه فی ذلك الوقت وقع امر ادهش العالم كله وهو ان بطليموس الذى كان يظهر من اعماله انه رجل صغير النفس متوغل فی لذاته الحسية ، صادف جيش السلوقي المهاجم على بعد خمسة اميال من رفح من جهة البادية وكان مع بطليموس جنود فی تحمس شديد ، مؤلفون من مكدونيين ويونان ومصريين ولما تلاحم الجيشان فی رفح ( وقد وصف لنا الوقعة پولبيوس ) ولّى انطيوخس الادبار شطر غزة ٠ ومنذ ذاك الحين استولى المصريون على فلسطين التى افرغها لهم الجنود السلوقيون ٠

وفی سنة ٢٠٠ قبل المسيح بعد أن خلف بطليموس الرابع بطليموس الخامس الصبي ، أعاد انطيوخس الثالث الكرّة وفی سنة ١٩٩ المذكورة استرجع هذه الايالة للمصريين اليوناني الأفّاق سكوپاس وفی سنة ١٩٨ أغار انطيوخس بنفسه على فلسطين بجيش فوقعت معركة عظيمة عند ينابيع الاردن فی موضع اسمه « ڤانيون » ( أى هيكل الاله « فان » أو « پان » ) فكان فيها الحكم الفصل أى ان فلسطين صارت للسلوقيين ٠ وكان بين الجماعات المختلفة الموجودة فی فلسطين جماعة اليهود وكانت محلتهم تشمل قسماً من المدينة قليل الامتداد ومحيطاً باورشليم فهناك رحب كهنتهم بالملك السلوقي كل الترحيب وبخلاف ذلك جرى فی غزة مدينة الفلسطينيين العظمى فانها بقت متعلقة كل التعلق ببطليموس فحاصرها انطيوخس وأخذها ، وحصار غزة هذا يعد من أهم المحاصرات التى وقعت فی ذلك العهد ٠

وبعد ثلاثين سنة ( سنة ١٧٠ ـ ١٦٩ ق٠ م٠ ) كان قد قبضت على

زمام ديار مصر رجال اخصياء باسم ملك صبي وهـــو بطليموس السادس فصممت جيوشهم على افتتاح الايالة المفقودة منهم • وفي ذلك الوقت كان انطيوخس الرابع ( ابيفانُس ) الغريب الاطوار ابن انطيوخس الكبير قـد قبض على أعنة الملك فلما سمع بتهيُّؤ المصريين لفتح بلاده أسرع في تجهيز عساكره وتعبئتهم وعبر الصحراء التي بين مصر وفلسطين بينما كان الجنـد المصريون يتهيأون للزحف فلاقاهم قريبـا من مصر وهنـــاك بدّدهم كل مبدّد واستولى على الوجـــه القبلي ( مصر السـفلى ) فقاومت الاسكندرية السلوقي وفي نحو سنة ( ١٦٩ ق•م ) استرجع انطيوخس قواته ، لـكن في السنة التالية هجم على مدالت النيل مرة ثانية ثم افرغ البلاد لمـــا رأى شدّة عزم أحد السفراء الرومانيين • فحافظ حينئذ على فلسطين •

## توسع المملكة اليهودية

بينما كانت الدولة السلوقية تخسر ولاياتها الواحدة بعد الاخرى شرقاً وغرباً وشمالاً فانها كانت تربح فلسطين في الجهة الجنوبية ، ولكن لم يدم لها هذا مدة طويلة ، بيد ان العدوّ الذي كان يهـدّد أخـــذ فلسطين من السلوقيين لم يكن مصر بل جماعة اليهود التي كانت قد تجمعت حول هيكلها في القدس لان ترتيبات انطيوخس ابيفانس ومحاولته اجبـار اورشليم على التخلق باخلاق اليونان كرهاً ، واقناعهم على انه اذا عبدوه هو يكون عملهم كما لو عبدوا الذي يسمونه الرب ، اخرجهم من حالة السلم والاستكانة الى حالة الحرب والدفاع عن انفسهم •

هذا وعصيان اليهود في عهد بيت الحشمونيين الكهنة المعروفين ايضـا بالمكابيين[١] بدأ قبل وفاة انطيوخس ابيفانس ( سنة ١٦٥ ـ ١٦٤ ق•م )

---

(١) اسم مكابيوس ( مهما كان معناه ) كان لقب يهوذا فقط وفي الايام الاخيرة لا غير استعمل هذا اللفظ في الجمع واطلق على أهل هذا البيت كلـه •

والمنازعة بين السلطة الجديدة والحكومة سارت سيرة اختلفت فيها الخطوط في عهد الملوك الآتي ذكرهم • ولما كان انحلال المملكة السلوقية يزداد يوماً فيوماً دالت الدولة لليهود • وفي سنة ١٥٢ اقيم أحد الاخوة الحشمونيين وهو « يوناثان » كبير احبار اى مدبر الشعب في اورشليم • وقبل سنة ١٤٣ أخذوا يافا وفي سنة ١٤٢ تخلى الملك ديمتريوس الثاني عن كل حق له في الخراج أو في الضرائب على اراضي اليهود • وفي سنة ١٤١ الغيت الحامية السلوقية من قلعة اورشليم وهذا كان بدء استقلال اليهود • وفي تلك السنة نفسها أخذوا جزر ( جزرَة ) التي كانت تشرف على الطريق التي بين اورشليم والبحر • وبين سنة ١٢٩ و١٠٨ وسعت الدولة اليهودية تخومها في جميع الوجهات • فأخذت السامرة تلك التي كانت قد صُيّرت مدينة يونانية وصرفت مجاري مياهها شطر اليهودية • وأخذت أيضاً اسكوثوپوليس (المعروفة في العهد القديم بـ بَيْتشان أو بيسان) وهي مدينة تشرف على الطريق التي وراء الاردن • واُخذ ايضا من انباط العرب قطعة ارض في عبر الاردن • وفي الجنوب فتحت ارض الادوميين واجبروا اهلها على التهوُّد وهكذا انضموا الى المملكة اليهودية • وفي سنة ١٠٤ جلس على منصة الحكم كبير الاحبار الجديد المعروف في بلاده باسم يهودا وسمّى نفسه ارسطو بولس ملك اليهود ، لما كان له بعض معاملات مع الممالك الاجنبية ، وهو الذي ساعد على امتداد ملك اليهود لانه فتح بلاد الجليل واضطر اهلها أن يتهودوا كما تهود الادوميون — ولعل هذا العمل عمل الحشمونيين هو من أهم الاعمال في نظر المسيحيين وفي عهد اسكندريَنّاوس خلف ارسطوبولس ( سنة ١٠٣ — ٧٦ ق• م• ) امتدت سلطة اليهود على فلسطين كلها الى حد بحيرة ميرومة نحو الشمال • اما الهلنية فانها اضمحلت كل الاضمحلال من هذه الديار كلها •

# المرشحون للوراثة

قد المعنا في ما سبق من كلامنا ان حقبة السلوقيين هي الطور الثالث من المنازعة بين الهلنية والايرانية في غربي آسية • وكانت مميزاته انحلال الدولة العظمى الهلنية دركةً دركة • لكن في القسم الاول من القـــرن الاخير قبل المسيح كانت هذه الدولة قد تركت ما وراء الفرات الى الدولـة الايرانية الجديدة دولة البرث • واما غربي تلك المملكة فقد كانت اراضيها بيد دولة آسوية عديدة مستقلة من كبيرة وصغيرة ـ وكان عـلى بعض منها ملوك ايرانيون كما في كپدوكية والپنطس ولعل بلاد الارمن ايضا وكان على البعض الآخر منها ملوك وطنيون كما في بيثينية واليهودية • وهذا لا يدل على أن التخلق باخلاق الهلنيين مُحيَ محواً تاماً من تلك البلاد كما يتوهمه القارىء بما أن قصور اولئك الملوك انشئت على مثال قصور اليونان بقـدر ما تحمله الحال •

اما اليهود فلعل تخلقهم بالاخلاق اليونانية كان قليلاً ، اما في البنطس فان التخلق باخلاقهم كان في درجة عظيمة • ولـم يترك لبيت سلوقس الا الشمال من سورية وقليقية وعلى الباقي من هذه البقعة كان الامراء يتنافسون عليها والخصام دائم بينهم • والقسم الاقصى من غربي آسية الصغرى اصبح ايالة رومانية • ولا جرم ان هذه القطع التي صارت اليها هذه البلاد غدت حصة لدولة عظيمـــة ، لكن ما عسى ان تكون تلك الدولة في ذلك العصر لتمد يدها عليها ؟ قلنا : كان في ذلك العهد اربع دول يخطر ببالها أن تتسلط على تلك الديار وهي السلطة الايرانيـــة التي كانت بيد البرث ، والسلطة الارمنية والسلطة الايرانية في البنطس وكانت يومئذٍ بيد ملك همام ، قوي الشكيمة وهو مثريدات اوپاتور وسلطة رومة •

فالظاهر لاول وهلة ان البنطس وارمنية كانتا عتيدتين لترثا البلاد الغربية من الفرات • ومثريدات توجه نحو الغرب وفى سنة ٨٨ ق • م • احتل ما يكاد يكون كل آسية الصغرى • واخذ الولاية الرومانية وقتل بالسيف الرومان المقيمين فيها ، وفى السنة التالية ارسل عسكره الى اغريقية، فأجبرت زحفات القائد الروماني « سُلاّ » مناوئه مثريدات على أن يرجع القهقرى والسِلْم الذى وُقّع عليه فى سنة ٨٤ ق• م• كان صلحاً قلقاً ، وابقى ملك البنطس بموارد جليلة ، وفى موقف يمكنه من أن يعيد الكرة •

وفى ذلك الوقت عينه توجه « تكران » ملك الارمن نحو الجنوب ، وقبل سنة ٨٣ افتتح الجزيرة على ما قلناه سابقاً اخذاً اياها من البرث وفى سنة ٨٣ اغرقت سيول جنود الارمن سورية طاردة امامها الامراء السلوقيين المساكين الذين كانوا فى نفار وشجار ، وفى الجزيرة أخذ تكران بتأسيس مدينة جديدة كبيرة تخليداً لاسمه وجعلها مناوئة لبابل ونينوى واكبتانة وسلوقية وهى التى سميت بعد ذلك تكرانوكرت (١) • وكان يجلب اليها سكان مدينة قليقية اليونانية • وفى سنة ٦٩ ق• م• تقدم الارمن نحو الجنوب حتى بلغوا تخوم مملكة اليهود واصبح تكران صاحب الساحل الفنيقي • وفى ذلك الحين ضربت رومية ضربة قوية هائلة ، وذلك أن العناصر غير اليونانية فى آسية الصغرى كسبت مدة ٢٥٠ سنة ما شيده الاسكندر من ملكه فى مدة عشر سنين، وكانوا فى تقدمهم هذا يسيرون سيراً متدرجاً ناجحاً •

اما فى سنة ٧٣ ق• م• ــ وهى السنة التى اوقف فيها لوقيوس « لوقس » هذا السير اذ افنى جيش البنطس قرب « كوزيكس » على بحر

---

(١) وهى التى سميت آمد بعد ذلك واليوم تعرف باسم ديار بكر •

مرمزة - اخذت رومة بالتقدم • وفى السنة التالية أخـذ لوقس البنطس نفسنه فلجأ مثريدات الى ارض تكران وفى سنة ٦٩ هجم لوقس على الملك الارمني وسار بجنوده الى تكرانوكرت فانتصر فيها نصراً مبيناً على الارمن مع انهم كانوا اكثر عدداً من الرومان وبذلك انتهت مملكة الارمن التى لم تطل الا مدة قصيرة •

وبعد سنتين استرجع مثريدات البنطس وفى سنة ٦٦ قُلِدَ پنپيوس قيادة الجيوش الرومانيـة فى الشرق فطرد مثريدات مرة ثانية من البنطس ومات شريداً طريداً وكفَّر تكران لپنپيوس ووضع تاج ملكه بيد الرومان فاذنوا له ان يقبض على صولجان المملكة الصغيرة التى كانت بيد أرتحشيـا أحد اسلافه •

## روما تتقاسم الميراث مع فارس

نظم پنپيوس الامور فى الشرق تنظيماً جديداً من قِبَل رومية فكان قسم من البلاد ايالاتٍ رومانية يحكمها حكام رومانيون مثل ايالة « آسية » التى قامت مقام المملكة الاتاليدية سنة ١٣٣ ق • م • وقسم آخر كالبثينية مع جزء من غربي البنطس صار ايالة رومانية على حَـدِ سورية • وتركت اصقاع اخرى لبعض الامراء هم عُمال الرومية كما هو الامر فى الممالك الموجودة اليوم فى الهنـد وهى فى حالتها الناشئة • وفى كُمّاجينة وهى البلاد العالية من شمالي سوريا الواقعة بين جبال الطورس والفـرات كانت الحاضرة سموساطا ( وهى سمساط الحالية ) وكان حاكماً عليها بيت يتصـل نسبُه بآل سلوقس من جهة النساء الى سنة ٧٢ بعد المسيح ( وهى السـنة التى انزل فيهـا الانبراطور الرومانى ملـكها عن عرشه ليتسمَّى باسمي انطيوخس ابيفانس ومثريدات الشهيرين فى التاريخ فجاءت رومة فى آسية مجيىء وارثة لاسكندر ومناضلة عن الهلنية وبانّة لدعوتها • ولقد عُدَّت

رومة فى آسية وفى أبعد اصقاعها عداد سلطة يونانية أو هلنية . ولم تفكر رومة ابداً بان تُلَتِّن ايالة الشرق ( لَتَّنَه اى صيره لاتينياً ) . نعم مع الوقت وقع تغيير فى التخوم وابدال فى الاقسام المختلفة ولكن التلتين لم يكن من نية الرومان .

وكانت ممالك الاقطار آخذةً بالسقوط تحت سيطرة رومية راساً كما فعلت ذلك غلاطية مثلاً فى سنة ٢٥ ق . م . واليهودية فى سنة ٦ ق . م . ( وان كان لمدة ٣ سنوات أى من سنة ٤١ - ٤٤ ب . م . كانت موقتا قسما من دولة وطنية فى عهد هيرودس المذكور فى سفر الاعمال ١٢) ومثل كبدوكية فى سنة ١٧ ب . م . والكماجينة فى سنة ٧٢ ب . م . لكن نستطيع أن نصف هذه الحالة (الرومانية ) الرابعة فى المخاصمة بين الهلنية والايرانية بنوع عام بقولنا ان ما نراه هو قسم ثابت نوعا ما من هذه الارجاء اختلف عليها : ان الهلنية المُدْمَجَة فى رومية بقيت مالكة لآسية الواقعة فى غربى الفرات ومصر وكذلك بقيت الايرانية مالكة ملكا ثابتا لبلادها المسماة بايران وبقيت هذه الحالة غير متغيرة تغيرا جوهريا فى الطرفين المتقابلين الى أن حدث حادث قلب الامور ظهراً لبطن وهو ظهور دولة جديدة فى المائة السابعة بعد المسيح .

## حروب بين رومة وبرثية

بقيت الحروب بين رومة وايران سجالا لا تقطعها فترات على تراخى أستار الاعصار ، فكانت التخوم تمتد الى الشرق أو الى الغرب كثيرا أو قليلا على ما تدول الدول . ولم تبق بابل والجزيرة من ولايات المملكة الوسطى بل أصبحتا حبلا بين الدولتين الكبيرتين تارة تجذبه اليها الواحدة وطورا تجذبه الاخرى . وأول وقعة حدثت بين رومة والبرثيين كانت قبل أن تتحول جمهورية الغرب مملكةً فكان ذلك طامة على رومة . وفى سنة

٥٣ ق٠م٠ سار كراسوس أحد الرجال الثلاثة القابضين على أزمة الحكم، ومعه جيش ، زاحفا به على البرث فى الجزيرة ، فاتلفت فرسانهم الجيش الرمانى هذا قرب مدينة حرّان القديمة ، وهى المدينة التى سمعنا عنها منذ عهد الآشوريين بأنها مدينة الاله القمر المقدسة (المسمى سِين عند الاقدمين) وفى ذلك العصر كانت هذه الحاضرة قد تغيرت عن شكلها السابق كما تغيرت سائر المدن التى فى آسيّة الدنْيا وأصبحت مستعمرة يونانية باسم « كَرّة أو حَرّة » ٠

وتاريخ جميع الحروب التى وقعت جيلا بعد جيل طويلة التفاصيل ولا يمكن سردها هنا لضيق المقام ولاننا نعرف أغلبها ٠ وكانت ديار بابل أرض شنعار أصبحت هى وما فيها من الترع والبساتين الخصبة مخلصة الوداد للبرثين وكان أهاليها منذ ذلك الحين يتكلمون ضربا من اللغة السريانية وكان الملوك البرث قد اختاروا كرسياً لمملكتهم قُطَيسِفُون ( المعروفة عند العرب باسم طيسفون ) وهى امتداد مدينة سلوقية فى الضفة المقابلة لها من دجلة أى على الضفة اليسرى منه ٠ لان سلوقية نفسها تلك المدينة اليونانية ما كانت تكفى كل الكفاية لتكون مقراً لقصر دولة قد احتفظت ببعض عادات صحراء آسية الوسطى ٠ ولعل ربض طيسفون كان يمثل مدينة قديمة من عهد بابل ٠ نعم ان قطيسفون اسم يونانى ولا ريب فى ذلك لكنه عَلَمُ رجل ، ومن الغريب أن يكون أيضاً علم مدينة كما لو قسنا ذلك باسم جَمْس أو جُرْج فى اللغة الانكليزية ٠ وقد ظن بعضهم ان هذا الاسم عند اطلاقه على المدينة محولا عن اسم القطر فى سابق العهد وعرض بعضهم فى هذا الصدد اسم كسفيَا المذكور فى سفر عزرا (٨ : ١٧) ومهما يكن من الامر فان طيسفون أصبحت مقر ملوك البرثيين وهناك كان يقيم الملك الارشكي « ملك الملوك » على كرسى من ذهب محتاطاً بأكابر دولته

وكان منهم «السورين» و «الحارين» وكان لهما وظائف والقاب وراثية في بيوت ممتازة مولودة في ايران أو في صحراء خوارزم القريبة من الديار الايرانية وورا ءها •

وكان سبب الخصام بين رومية والپرث بلاد ارمنية فقد كانت دائما بيد أحد بيوت ملوك البلاد نفسها ، ولهم أسماء ايرانية ولا شك كانت لهم عادات ايرانية أيضا • أما للرومان فمسألة ارمنية كانت مسألة مبدأ من مبادىء دولتهم وهو انه من المتحتم عليهم أن يثبتوا سيادتهم على ارمنية وان يُمكنوا على عرشها أميراً يعتمدون على أمانته • ومن الجهة الاخرى يُرى العرى المحكمة العقد بين ارمنية وايران لا تنكر ، وكان من عزم ملوك ايران وضع ايديهم عليها وكان أعضاء البيوتات الاميرية المختلفة الارمنية فى نزاع دائم بينهم فكان كل من يحق له أن ينزع الى القبض على الصولجان يستغيث برومية أو بطيسفون ، ولم يمكن لاحدى السلطتين ان تبقي مرشحها على العرش فكانت هذه الحالة سبب حروب لا انقطاع لها •

وفى بعض الاحيان كان أحد الحزبين يقوى على الآخر فيذهب رئيسه ومعه اتباعه وجنده فيمكنه الحظ أو تمكنه قوته من البطش بعدوه أو من دفع حدود أراضيه الى تخوم خصمه • وفى المدة التى بين سنة ٤١ و٣٩ ق•م• غزا البرثيون سورية وجانبا كبيرا من آسية الصغرى (الاناضول) وفى سنة ١١٥ ب•م• انتزع الانبراطور تَريانُس الجزيرة من أيدى الپرث وجعلها ولاية رومانية وفى السنة التالية افتتح القطر الآشوري القديم في شرقي دجلة وسار منذ ذاك الحين الى دجلة السفلى واستحوذ على سلوقية وطيسفون والعرش الذهبى ونشر أجنحة ألويته فى خليج فارس • فضمّت أراضى الفراتين الى الاراضى الرومانية وجعلت برثية دولة تابعة لها • الا ان الملك ادريانس ( سنة ١١٧ ــ ١٣٨ ب•م• ) اعاد جميع فتوحات ترايانس وعاد

الى التخوم الاولى • وفى عهد « مرقس اوريليوس » (١٦١ – ١٨٠) عاد الرومان فافتتحوا الجزيرة من جديد وأخذوا سلوقية وطيسفون وأوغلوا الى نجد ايران ولم يستبقوا لانفسهم من هذه الفتوحات الا غربى الجزيرة التى غدت ايالة رومانية وحران صارت مدينة حُرّة فى حماية الرومان (١٦٥ ب•م•) وفى سنتى (١٩٨ و١٩٩) انفذ الانبراطور « سَپْتيمُس سَوِيرُس » جيشا رومانيا الى الجزيرة وأخذ سلوقية وطيسفون للمرة الثالثة فصارت الجزيرة كلها (ما عدا ديار بابل) ايالة رومانية فكان ذلك بمنزلة نتيجة لتلك الزحفات المتكررة •

## الدولة الساسانية الفارسية

بعد مضى ٢٥ سنة حدث فى ايران تغيير عظيم زاد فى ابتعاد ايران عن رومة وذلك ان رجلاً نهض فى الاصقاع العالية من جنوب غربى ايران وهى الاصقاع التى نشأت منها الدولة الكيانية أو – أرض فارس الحقيقية – يطالب بعرش كورش ودارا • وكان اسمه أو هو سمى نفسه أرتَحْشَشْتَا (وهو المصحف الى الفارسية الحديثة بصورة اردشير) واسم اسرته معروف فى التاريخ باسم جده ساسان • فأنشأ دولة ثالثة وطنية حكمت على نجد ايران وشوشن • (ولعل كان ذلك فى سنة ٢٢٣ – ٢٢٤ ب•م• وتلقب بلقب ملك الملوك) • وكانت الاسرة الارشكية مع أصلها البدوى وقبولها للاخلاق اليونانية قد أُزيلت الا شعبةً منها فانها بقيت حاكمة فى ارمنية ثم قام مقامها اسرة فارسية صحيحة النسب وكانت الدولة الساسانية أصدق وطنية من الدولة الارشكية ، ولم يكن امراؤها ملبين لسيادة قيصر الرومانية ، وكانت ذات غيرة لانها كانت تعتقد بالزرادشتية القيّمة وقد أُعيدت الى هذه الديانة بعناية هذه الأُسْرَة خطتُها الدينية والعملية على وجه اثبت • واذا كانت الهلنية قد غرس مبادئها الاسكندر المكدونى فى جميع المستعمرات

الايرانية فى عهد الارشكية فانها أخذت بالانحلال والاضمحلال فى عهــد السلسانيين ٠

وكان الملك الجديد الاعظم الفارسى يطلب الى سلطة الغرب أن تُرد الى ايران كل آسية ، وبعد قليل أى سنة ٢٣٠ ب٠م٠ غزت عساكره الجزيرة وأوغلت فى سورية وكپدوكية حيث لم يدخل تلك البلاد أحد من الفرس منذ غزوة البرثيين أى قبل ٢٧٠ سنة وقد تمكن الرومان من دفع الفرس الى ما وراء التخوم وان يأخذوا الجزيرة ولما كان سابور الملك الساسانى الثانى أخرج الرومان من الجزيرة وقبض على « والرياسن » الانبراطور الرومانى نفسه وكان قد جاء البلاد المذكورة للتصيُّد ( سنة ٢٦٠ ب٠م٠ ) وغزا قليقيــة وكپدوكية واسترجع الجزيرة باسم الرومان اذَيْنــه ملك تــدمر ، وزوج زنوبية ، وهدد طيسفون نفسها ٠ ثم خرجت الجزيرة بعد ذلك بقليل من أيدى الرومان ثم عاد فاسترجعها الانبراطور «كاروس» فى سنة ٢٨٣ ب٠م٠ وفي سنة ٢٩٦ رجع الفرس فنزعوها من أيديهم ٠ وهذه المرة لم يطردهم الرومان الى خارج فقط بل ابتنوا قلعة حصينة فى آمد ( أى ديار بكر ) على دجلة قريبا من منبعه ٠

## تنصر الدولة الرومانية

وبعد هذه الاحداث التى وقعت طرأ فى الدولة الرومانية حادث أجلُّ وأهمُّ مما طرأ فى ايران بظهور الدولة الساسانية ، وذلك ان جماعة نهضت من الامة اليهودية ، من هذه الامة التى لم يكن لها عظيم قدرٍ فى ما رأيناه من حدثان الزمان ولم تُعدّ من عظام الامم أبداً واذا بها قد نهجت لها سبيلا لاحبا فى الدولة الرومانية وفى ايران فى مدة القرنين ونصف من الازمان الاخيرة ٠ وقد حاولت الدولة الرومانية أن تخنق النصرانية فى مهدها لانها نظرت اليها نظرها الى شيء مخطر فى الدولة وحاولت أيضا الدولة الساسانية

ان تمحى الديانة المسيحية فاضطهدت القائلين بها وعاملتهم أعداءً لديانة زرادشت ، لكن ذهبت مساعي القبيلين ادراج الرياح ، وفي سنة ٣٠٦ ب٠م٠ نودي انبراطورا رجل الباني (ارناووطي) الاصل واسمه قسطنطين وذلك في مدينة ( يُرْك ) الانكليزية وهو الذي جعل الديانة المسيحية الديانة السائدة في العالم الروماني ومنذ ذلك الحين أصبحت المنازعة بين رومة وفارس منازعة دينية بين القبيلين ٠

وتنصُّر الرومان لا يدل على أن العالم الروماني عدَل عن أن يمثل الهلنية ولا سيما ان العادات المنقولة عن السلف اليوناني قد انبتت التهذيب القديم ، الا ان الاخلاق الهلنيَّة مُزِجت منذ ذاك الوقت بعنصر غير هلني ٠ بينما ان النصرانية كانت قد تشرَّبت الهلنية وامتزجت بها امتزاج الماء القراح بالراح ٠ وأفرغت عقائد الكنيسة المسيحية بقوالب عبارات اقتبست من التعابير الفلسفية اليونانية ٠ وكانت الاهالي الساكنة في الشرق الادنى تجهل كل الجهل الفاظ فلسفة يوانة العظمى قبل اسكندر الكبير كما انها كانت تجهل اسم موسى الكليم العظيم ، اللهم الا جماعة اليهود فانها كانت تعرفه كل المعرفة ٠ أما الآن فمن بحر ايجي الى دجلة ألِفَ الناس أسماء ارسطو وموسى ، اذ يمثلان ضربين من الحكمة الدنيوية والحكمة الدينية ٠ وكان الخلق يزداد عددا ومعرفة لاسم يسوع ويخرون سجدا له وأخذت أسماء الالهة العتيقة بالاضمحلال والنسيان ٠ وكانت ايران تغار على الزرادشتية وما كانت تريد لا عيسى ولا موسى ولا ارسطو ٠ وفي القرون الثلاثة الاولى من الميلاد كانت أرض الفراتين أرضا عسكرية وقد قسمت العالم قسمين : قسم أحب الاله في يسوع المسيح وقدَّر أعظم القدر ارسطو بمنزلة معلم الحكمة البشرية في الدنيا التي كانت تنتظر مخلصا الها وانسانا معا وهو سَاؤُ وْشيَانْت في الدهر المستقبل وقسم أكرم زرْدُشت اكرام اكبر نبي وحكيم ٠

أما ارمنية التى كانت تتجاذبها هاتان الديانتان فانها مالت في دينها الى التمدن النصرانى الهلنى قبل أن تدين بهذا الدين نفسه الدولة الرومانية ، ومن الغريب ان الذى أدخل ارمنية دين المسيح رجل من آل ارشك وهو «غريغوريوس المنوّر» ولعل بضع سنين قبل أن « يعتلي العرش » قسطنطين عمّد غريغوريوس نسيبه ثيريدات الثانى ملك ارمنية • ولقد ظهر جانب من انتشار الدين المسيحى خلال ولايات الشرق والدولة الرومانية ما يحمل على الظن ان هناك عنصرا وطنيا يناوىء الهلنية فى مسألة ـ وهذه المسألة هى أمر اللسان • فلقد كانت اليونانية منذ عهد اسكندر الكبير الى تبسط النصرانية اللغة الوحيدة فى هذه الديار التى كانت قد عرفت ببعض الآثار الادبية • ويتبين ان اللغة اليونانية قتلت لغات البلاد نفسها حتى فى طبقات الناس الدنيا وان كانت اللغة الفريجية عاشت فى بعض المواطن متبدّدة فيها • أما فى ارمنية وسوريةومصر فان الالسنة القديمة كانت الى ذلك العهد لسان الفقير ، بيد ان كل شعب مهذب اراد أن يسمو الى معالى الآداب كان يتعلم اليونانية ويكتب فيها • وكادت هذه اللغات الوطنية ، لولا ان النصرانية جاءت فأعادت تلك اللغات الى انصابها واتخذت آدابها فى التنصّر • فلقد نشأت فى البلاد الشرقية آداب فى اللغة الارمنية والارمية والقبطية • ولا جرم ان سبب ذلك كان لان النصرانية كانت مضطرة الى تعليم الفقير بلسانه اصول الدين فنقلت تلك اللغات التوراة وسائر المؤلفات الدينية ، واذا كان هذا الامر ضربا من الاقرار بشرف تلك اللغات وقدرها وتنكباً عن امتياز اللغة اليونانية المتعجرفة والمنتشرة فى العالم ، فقد كان من الجهة الثانية وسيلة لتوسع نطاق الهلنية • لان المؤلفات الدينية التى نقلت الى هـذه اللغات الوطنية كانت تنشر الافكار اليونانية فى معظم مقرراتها • فكانت تحمل فى أوعية جديدة لو أمكننا هذا التعبير مع أفكار فلسفية يونانية • ولم تنقل الى تلك اللغات الوطنية المؤلفات الدينية اللاهوتية المسيحية فقط ، بل وُجد من عُني بنقل الآداب

اليونانية الفصيحة الى تلك اللغـــات ولا سيما قـــد نقلت الى الارامية الكتب العلمية • فقد كانت مدرســة الرها ( ايذسـّـا ) فى الجزيرة أهم مركز للنشاط الادبي السرياني •

## الهلنية في الشرق الروماني

منذ أن استحوذت رومــــة على ميراث الاسكندر فى آسية ، كانت الهلنية قد اوغلت فى تلك الديار •

لا جرم ان اضطرابات الازمان السلوقية لم تكن مساعدة لنشر الحياة المدنية الهلنية وان كان السلوقيون الاولون اسسوا مدناً كثيرة يونانية فى دولتهم ، فالايام المجيدة لتلك المدن اليونانية فى آسية الصغرى وسـورية كانت ايام العهد الرومانى • وبقايا المبانى العظيمة قد تُرى الى هذا العهـد فى كل موطن من مواطن داخل آسية الصغرى وسورية والجـزيرة ــ ان اسس الهياكل والانقاض والعمد والمسارح والحمامات المدفونة تحت التلول أو الاطلال الشاخصة الجليلة الشأن كما فى بعلبك وتدمر تنطق بعظم تلك الابنية ــ وهى كلها راجعة الى العصر الرومانى وتشهد على ثروة اصحابها ورقي حياتها التى كانت تـُطوى فى تلك الارجاء • واما فى عهد الترك فان تلك الاقطار خربت اى خراب ، بينما ان الربوع التى سار فيها التمـدن الافرنجى فى وجهه اتمّ رُقي العـلم والسطوة بدون ان تقف هنيهةً • نعم ليس للآداب اليونانية اللغوية التى نشأت فى الشرق الرومانى الابتكار والغَضَاضة اللذان كانا لها فى القرون التى سبقت المسيح ، لكنها كانت ثمرة اعمال جماعة مهـــذبة حافظت على ما اتصل اليها من تلك الآداب اليونانية ان لم نقل انها زادتها • وبين اسماء المشاهير من كُتّاب اليـونان فى العصر الرومانى طائفة صالحة منهم منسوبة الى مدن آسيّة الصـغرى وسورية من ذلك « ديون الذهبي الفـــم » من بروسة ( وهى بورصـة

الحالية ) فى بيثينية ( سنة ٤٠ ـ ١١٥ ب٠ م٠) ولُقْيَان السموساطي ( الشمشاطي ) فى أعالي الفرات وهو كاتب صاحب مبتكرات قوي العارضة فى الآداب اللغوية اليونانية ( ١٢٠ ـ ١٨٠ ) وكان لقيان سوري المحتد ولم يأخذ اليونانية الا بلغ أشده ٠

ولما تنصرت الدولة الرومانية بقيت تلك الربوع تنقل ما يتيسَّر لها من ثمرات الحضارة اليونانية النصرانية ٠

اما كتّاب سورية والجزيرة فانهم كانوا ينشئون مؤلفاتهم بالسريانية على ما تقدم القول واما فى آسية الصغرى فلقد ابرزت فئةً من الآباء الكتّاب الذين وضعوا تآليفهم فى اللغة اليونانية كأنها لغتهم التى تعلموها منذ صغر سنهم وهم جماعة متسلسلة متصلة الحلق ـ ومنهم الكبدوكيون الثلاثة وهم غريغوريوس النزينزي ( ٣٢٩ ـ ٣٨٩ ) وباسيليوس القيصري ( ٣٢٩ـ٣٧٩ ) وغريغوريوس النيصي ( ٣٣١ ـ ٣٩٦ ) واما اسية الصغرى الواقعة فى غربي الفرات فقد كانت تفصل اورية عن آسية ( بالنظر الى الحضارة ) لم يكن البُصْفور بل دجلة والفرات ٠ ولما ترى نصرانية اورية ما حل اليوم بتلك الربوع من الخراب والدمار ترى ان جزءاً من اجزائها فنى واضمحل ٠

## رومة النصرانية وفارس

وقعت حروب ولدتها فُرص الزمان بين فارس ورومة المسيحية وان كانت تلك المعارك اقل وقوعاً منها عندما كانت رومة وثنية ٠ وكانت الجزيرة اقليماً متاخماً لبلاد الرومان ، وكان يحرث ويزرع تلك الاراضى اولاد جند الجيش الانبراطورى ، ليدفعوا عنها عادية عدي المسيح ورومة ٠ وفكرة رومة وما تناقله الابناء عن الاباء من امر الجندية ، كان يشدّ عصب تلك الجنود التى كانت تحافظ على التخوم فى قلاعها ٠ وكانوا

دائماً يرصدون الافق ليروا اذا كان لألآء الأسنَّة الفارسية قادمة للهجوم. ومع ذلك فان رومة الحديثة لا تفيدهم ما كانت تفيذهم تلك المدنية القديمة اللاتينية راكبة التِبْر ، بل رومة اليوم فى نظرهم هى رومة الحديثة ، رومة قسطنطين الواقعة على البصغور التى فيها قصر يتكلم اهله اليونانية وهم يحيطون بملك مسيحي يُلقب بانبراطور الرومان .

ومن هذه الحروب التى تعددت واحدة منها تفيدنا فائدة خصوصية وهى التى تتعلق بزحفة « يليان » على الفرس فى سنة ٣٦٣ — ويليان هذا هو الذى استردته اليها الوثنية ، وكان قد قبض على الصولجان الرومانى للمرة الاخيرة . وكانت حرّان فى الجزيرة قد بقيت وثنيَّة كالجزيرة الصغيرة فى بحر الشرق المسيحى ، ولم تستطع ان تتخلص من عبادة القمر التى كانت قد شهرتها سابقاً مدة الف سنة . وآخر انبراطور رومانى ووثني اكرم هذه المدينة بمروره بها وهى تلك البقية الباقية من وثنية ، هى أقدم من وثنية رومة (١) فمشى اذاً يليان متجهاً نحو الفرات سائراً

---

(١) يحق بنا ان نلاحظ ان وثنية حرّان لم تعش بعد تنصر الانبراطورية الرومانية فقط ، بل عاشت بعد الاسلام الذى نراه يظهر قريبا . وكان اهالي حرّان صابئة فى عهد الخلفاء وقد سمح لهم بذلك ، فقد جاء فى احدى سور القرآن ذكر الصابئة مع اليهود والنصارى ( وكانت معاملتهم لهم أحسن من معاملتهم للوثنيين ) والظاهر ان هؤلاء الصابئة كانوا فرقة أدرية شبيهة بالنصرانية وهى من الفرق التى اضمحلت من الوجود . وقد بقى زمن مديد لا يعرف من أمر الصابئة شيء ، مع أن ذكرهم وارد فى القرآن على ما قلنا وقد سمح لهم بالبقاء بين ظهرانى المسلمين . فادعى اهالي حران انهم هم هؤلاء الصابئة وهم المقصودون فى الآيات القرآنية ، ومنذ ذلك الحين ثبت فى تقاليد المسلمين ان المراد ( بالصابئة ) عبدة الكواكب الموجودون فى حران . وفى بعض الكتب =

فى ديار بابل ان أن وصل الى اسوار طيسفون •

ويسوغ لنا ان نلاحظ هنـا ان سلوقية فى ذلك الوقت اضمحلت ولم يبق لها وجود فى عهد الملوك الساسانيين • واذا كان قد بقي منها بقية فكانت عبارة عن بضع دويرات تعرف باسم « كوخي » وهى فى الاصـل رَبَض لاحق بالمدينة الملكية واقعة على الضفة الاخرى • اما بابل فقـد كانت بعد زاهرة زاهية بل آية فى الخصب ، وقد كان أحد الناس قد ذهب مع يليان وروى لنا ما رآه من مزارع الحنطة والاشجار المثمـرة من كل نوع وعن النخيـل المغـروس على طـول خليـج فارس ( أميناس مَرْسَلِّينُس ) •

ولم يقف يليـان ليحاصر طيسفون بل ضرب القطر كله الواقع فى شرقي دجلة ، وهو القطر الذى كانت تعمل فيـه سنة ١٩١٧ الجنـود البريطانية بعد سقوط بغداد • ومات يليان من جرح أصابه فى مناوشة بينه وبين الفُرس فى موطن يبعد مسير يوم عن سامراء ، وكانت نتيجة هـذه المصيبة ان وقع شرقي الجزيرة بيد الفرس مع نصيبين المدينة الحصينة التى كانت من أهم مراكز الدفاع فى مُدَدٍ مختلفة وكل ذلك فى عهد خلف يُليان •

---

= المحدثة قد خلط الكتاب الافرنج اسم الصابئة (بالسبأية وهؤلاء منسوبون الى سبأ من بلاد اليمن ) ولا يتصلون باولئك بنسب من الانساب • والفرق بين اللفظين ظاهر من أن الواحد بالصاد والآخر بالسين :ـ قال المعـرب : ما عدا ان الحرفين مختلفان فى كل من اللفظين فان الصابئة على وزن فاعلة والسبأية على وزن فعلية • فالفرق بين اللفظين ظاهر كل الظهور فىاللغات السامية ، لكنه دقيق فى اللغات غير السامية لامتزاج الواحـد بالآخـر فى الحروف والوزن •

وبعد حرب اخرى وقعت بين الانبراطور ثيودوسيوس الثانى وبين فارس ( ٤٢٢ ب. م. ) وهى الحرب التى لم يتمكن فيها الرومان من استرجاع نصيبين ، عقبها سلم دام نحو ستين سنة . وفى سنة ٤٢٨ قسمت ارمنية بين الحكومتين بموجب المعاهدة التى اتفق عليها القبيلان .

ولما تربع « يستنيان » على عرش قسطنطينية أخذت تقع اضطرابات جديدة وكان يومئذٍ كسرى انوشروان يملك فى فارس ، وبعد ٢٢٠ سنة رأت مدن سورية غازياً فارسياً ، فأخذت انطاكية عنوةً ثم احرقت ، وذبح جانب من أهاليها ، والجانب الآخر سيق فى مواطن على دجلة ( ٥٤٠ ب . م . ) .

وبعد ذلك دامت الحرب نحو ٢٠ سنة بدون أن تأتي بتغيير فى التخوم .

وقد قرب ان تدخل دولة اخرى جديدة لتفصل فصلاً باتاً هذا النزاع المتطاول بين رومة وفارس ، ومن غريب الاتفاق ان الدولةالساسانية لم تبلغ أشدها الا حين آذنت شمس مغيبها ، وكذلك كان الامر فى الدولة الاشورية العظيمة . وفى سنة ٦٠٣ ب . م. بدأ كسرى الثانى غزوة اخرى للبلاد الرومانية فوقعت فى يده سورية مع انطاكية وسائر المدن اليونانية ، وذلك فى سنة ٦١١ . وفى سنة ٦١٤ فتح فلسطين وانتزع اورشليم ( القدس ) وهى يومئذٍ مدينة نصرانية لا مدينة يهودية . وفى سنة ٦١٦ دخل الفرس بلاد مصر ودفعوا فتوحاتهم الى شمالي افريقية الى طرابلس الغرب ، وفى ذلك الزمن عينه ، كان الفرس يفتحون آسية الصغرى المدينة بعد المدينة ، حتى وصلوا البصفور واقاموا معسكراً يحجز بينه وبين العاصمة الكبرى الواقعة على ساحل بحر اوربة شيء من الماء .

فجميع هذه الاصقاع التى لم يعد الفرس يملكونها منذ أن سقطت

الدولة الكيانية امام الاسكندر قبل ٩٥٠ سنة وقعت مرة اخرى بيد ملك ايراني • ولما بدأ الخصام بين بلاد هلاس ( اليونان ) ورومة فى أواخر المائة السادسة قبل المسيح ، كانت السلطة الايرانية قد قبضت على غربي آسية كله ويظهر الآن بعد أن مضى على الخصام أحد عشر قرناً ان الامور رجعت الى مقرها الاول ، فلقد طردت سلطة الغرب واسترجع ملك كورش ودارا •

ولم يتراجع صدى الديانة المسيحية اليونانية الرومانية الا بعد بضع سنوات • فبينما كان الفرس معسكرين بعد على الشاطىء الآسوى بأزاء القسطنطينية انزل الانبراطور هرقل [١] جيشا فى اسكندرونة ( لانه كان للرومان سيادة البحر ) فقطع حبل الوصال على الفرس وسار فوق جبال الطورس خلال ديار كپدوكية الى البحر الاسود ( سنة ٦٢٢ ب • م • ). وفى سنة ٦٢٤ ب • م • بعث جيشاً آخر على طريق البحر لينضم الى العساكر الرومانية الموجودة فى طرابزون وسار خلال ارمنية على طريق تبريز الى قلب المملكة الفارسية ، وفى سنة ٦٢٥ ب • م• هدّد قزوين واصفهان فاضطر الفرس الى استرجاع جيوشهم من ديار مصر والبصفور، وفى سنة ٦٢٦ ب • م • عاد هرقل على طريق الجزيرة وقليقية فى كپدوكية ومن ثم الى التلال الطائفة بالطرف الشرقى من البحر الاسود حيث تمكن وتحصن • وانهى هذه الزحفة فى سنة ٦٢٧ ب • م • وانتصر نصراً

(١) هرقل هو هرقليوس عند الرومان• قال المؤلف : وكيف يجب أن يلفظ هذا الاسم فان كنا نلفظه على اللغة اليونانية القديمة فان الياء مشددة ( أو طويلة على مصطلح الاوريبين ) اى هيرقليوس وباليونانية هيرقليوس بجعل الضم كالفتحة ( المفخمة ) واذا لفظناه بموجب النبرة على ما يلفظه اليونان المحدثون فالنبرة تكون على الراء أى انها تلفظ هيراقليوس وتكون الياء مخففة ( أى قصيرة ) •

مبيناً على جيش الفرس قرب موقع نينوى . ومن هناك سار الى أسفل دجلة الى أسوار طيسفون هادماً فى طريقه قصر دستجرد الملكى ( قرب بغداد ) وعاد الى شمالي تبريز . وبعد ذلك بقليل قتل كسرى أحد اولاده وحينئذ عُقد الصلح فرجعت به جميع فتوحات كسرى الى رومة . والظاهر أن انتصار أحد الطرفين على الآخر ما كان ليغير شيئاً فى الحالة التى كانت عليها هذه البلاد منذ أن ساد دائماً فى غربي آسية ما كان قد وقف عليه حينما قسم بين ايران ورومة مع تخوم دجلة والفرات .

## تدخل العرب

ها قد بدأت الان شوكة جديدة فى العالم - الاسلام ! فلقد برز هذا الدين من ديار العرب موطن الساميين وهو الموطن الذى خرجت منه القبائل فى فجر التاريخ ، وذهبت واحتلت الجزيرة وديار بابل واشور . ومنذ أن دخل كورش فاتحاً لديار بابل ( أو يقال على الاصح منذ سقوط قرطاجنة ) كان يظهر ان ايام الساميين من جهة التسلط على العالم اضمحلت ، لكن كان بين تلك الامم امة جاء دينها ليفتح الدولة الرومانية ، وكانت سيادة العالم قد انتقلت من ايدى الهنود الاوربيين وانقسمت بين اليونان الروسانيين وبين الايرانيين . اما الان فقد نهض شعب سامى نهوضاً فجائياً بعد ان كان خامل الذكر مدة عدة قرون ، وقد قام من بلاد العرب ليدوّخ البلاد والعباد لكن على غير الوجه الذى كان يجرى عليه الغزاة الاولون من هذا العنصر السامى بل على الوجه الديني اى انه يضع كل قواه معتقداً بالله وموحداً اياه .

والانبراطور هرقل الذى أنقذ سورية من أيدى الفرس رأى بعد بضع سنوات خروج تلك الديار من قبضته لتكون فى أيدى العرب الذين دانوا لنبيّ جديد ( ٦٣٢ - ٦٣٨ ب . م . ) . وبعد سنتين (٦٣٩-٦٤٠)

سقطت مصر في ايديهم . ولم يبق الا ديار العجم لم تقع في قبضتهم . الا ان سيول المغازي الاسلامية كانت تتعاظم وتتجه الى جبال ايران ، ولم تضمحل الدولة الساسانية فقط سنة ( ٦٤١ ب . م . ) ، بل أخذت المجوسية نفسها تتقلص شيئاً فشيئاً من تلك الديار . ولم يبق من أصحاب تلك الديانة العتيقة الا بعض بيوت حافظوا عليها ، وهم الى اليوم في تلك الربوع ، ومنهم جماعات هاجروا الى الهند ونرى اولادهم الى هذا العهد ، وهم عبارة عن فئة كبيرة أغلبهم تجار ويعرفون باسم « الفرس » .

نشأ الاسلام صغيراً كالجنين ثم تعاظم حتى اتسع وصار ملكاً جليلاً ، وامتد في الارض في الطول والعرض حتى صار أوسع من ملك الاسكندر ، اذ امتد من آسية الوسطى الى ايران وسورية وبلاد مصر ، وعلى طول أفريقية الشمالية الى بلاد الاندلس .

ولم يكن حظ الدولة المسيحية اليونانية الرومانية حظ بلاد فارس مزاحمتها ومنافستها بل ظلت حيَّة . وقد تقدمت الجيوش الاسلامية بين سنة ٦٦٨ و٦٧٥ وكذلك بين سنة ٧١٦ و٧١٨ حتى صارت تحت اسوار القسطنطينية ، لكنها لم تتوفق لدخولها آنئذٍ ، ولقد بقي الرومان اصحاب آسية الصغرى مدة قرون اخرى لا بل استرجعت بين سنة ٩٦٣ ـ ٩٧٥ ب . م . بلاد سورية ، ولم تخرج من أيديهم الا لما افتتحها الاتراك السلجوقيين في الوقت الذى استحوذ « النُرمان » على بلاد الانكليز .

ما زالت الامور تجري في أعنتها ، حتى انتقل اعظم قسم من الارض التي افتتحها الاسكندر للهلنية وما ربحه قسطنطين للمسيح الى السطوة الجديدة السامية . ولم يكن المسلمون اعداء لمسيحيي الدولة اليونانية والرومانية بالدرجة التى كان فيها لهم ابناء زرادشت ، لان اصول السلطة الجديدة كانت ناشئة من الديانة اليهودية . وبعد أن تمت الفتوحات

للمسلمين ، لم يُكْرَم موسى نبي فى بلاد الدولة المسيحية فقط بل فى آسية الوسطى كلها الى الاتلنتيكي • والرجل الذى رأى فيه المسيحيون الهاً متأنّساً عظمه المسلمون تعظيم نبي جليل فى جميع البلاد التى دخلت حوزتهم ، ولا تستثنِ من ذلك ديار ايران • وكان أبناء النبي الجديد الاولون يسيرون سيراً حثيثاً لفتح العالم ، وما كانوا يَرون لذة فى ارسطوطاليس • وداسوا بأرجلهم مبادىء الدولة اليونانية غير ملتفتين الى شيء منها •

## الهلنية أو اليونانية فى الاسلام

كتب بعض الادباء من المعروفين بقوة الاقناع اشياء لم يدونوها الا بعد أن أنعموا النظر فى روح الفاتحين الاولين من العرب ، ودققوا الفكر فى الرواية الخرافية التى تروى عن عمرو بن العاص فى احراق خزانة كتب الاسكندرية ، وبعد أن لاحظوا ما صار اليه الشرق الحديث من سوء المصير اذ اضمحلت منه الحضارة اليونانية بعد أن كانت فيه زاهرة زاهية ، والذى كتبوه هو هذا « انك ترى ان مساعي نقل حضارة « الغرب » الى آسية تلاشت لا محالة وان الشرق لا يهتم اهتماماً بما فى الغرب من النفائس الغاليات » • فهذا كلام يدل على جهل قائله والظاهر منه انه لا يجهل تاريخ الهلنية العظيم فى اسية فى خلال العصور منذ الاسكندر الى فتوحات العرب فقط ، بل يجهل ايضا كل تاريخ الشرق منذ فتوحات العرب الى عهدنا هذا •

اذا هجمت جماعات عظيمة من الشعوب الباقية على فطرتها على حضارة قديمة كما وقع ذلك مراراً فى سابق الزمن على ما أوضحناه فى هذا الكتاب ، فأول ما ينتج من ذلك التدفق هو ردع ذلك العمران بل ويظهر فى بعض الاحيان انه يكاد يفنيه ويلاشيه ، غير انه ان لم يَفْنَ

ما يتناقله الخلف عن السلف كل الفناء ، فيقع له ما يحدث في النار حينما يلقى فيها الخشب فانه يكاد يقلل اللهب بل يكاد يطفئها ، لكن لا يمضي شيء من الزمان الا وترجع النار الى شعشعتها لانها كانت تعمل في المادة الجديدة التي القيت فيها ، وتزداد بصيصا ولألآء اكثر مما كانت عليه سابقاً .

وهــذا مـا وقـع في الغرب . فان الغوط والوندال ، الافـرنك والصكصون ، لم يظهروا عناية بما في العمران القديم العتيق النسب أكثر مما أظهر له العرب عند ظهورهم . وفي آخر هذا القمع الظاهر للعمران برز هذا الرقي العظيم ، رقي التاريخ البشرى الذى نسميه اليوم « عمران الغرب » والذى ينساه الناس هو ان امم الشرق الادنى أظهرت استعداداً أبين لعلميات العمران اليوناني القديم بعد فتوحات الاسلام ممـا أظهرتـه الاقوام الفَظَّة التي انحدرت من شمالي اوربة . والحق يقال ان العنصـر العربى بقى ينظر الى حضارات البلاد التى افتتحها بعين الاحتقار والامتهان على ما يفعله المغاوير الجهلة الاميون ، هذا بوجه الاجمال ، لكن امم تلك الربوع القديمة من سريان وفرس لم تُحافظ على حُبّهـا لفـكر اليونان وعلومهم فقط ، بل بَدا لها خواطر جديدة أضافتها الى ما تلقته من اليونان بينما كان عالمنا الغربى يعود الى الهمجية ، وكل ذلك بعـد أن أسلمت تلك الامم واتقنت اللغة العربية لغة مواليها وساداتها .

ان ربوع شنعار العتيقة وهى الربوع المعروفة اليوم بالعراق اشتهرت من جديد بين ديار البشر كلها وذلك في عهد الخلفاء العباسيين ( نشأت هذه الخلافة سنة ٧٦٠ ب.م. ) ولا سيما في عهد هرون الرشيد ( ٧٨٦ – ٨٠٩ ب.م. ) وبعد ان تعاقبت احداث الزمان على هذه الديار على ما مرّ بنـا بيانه عادت فصارت قلباً للشعوب لان انهرها بقيت مفتوحة وظلت هى أرض الحنطة والنخيل و « **جنان خضر وقديمة محاطة بحيطان** » .

اضمحلت مدينة بابل ، وزالت سلوقية أيضا وقام بدلها بغداد في عهد

العباسيين وهى واقعة على بعد ٣٠ ميلا منها مصعداً فى دجلة ( بناها المنصور للمرة الثانية سنة ٧٦٢ ب٠م٠ والمملكة التى كانت عاصمتها بغداد كانت عظيمة ، ولم تكن عظيمة بثروتها وشوكتها فقط بل كانت عظيمة أيضا بحضارتها ) _ وحضارتها اليونانية • نعم ان أهالى أرض الفراتين تعلموا لغة مواليهم العربية واعتاضوا بها عن لسانهم الارامى الذى كانوا يتكلمون به بصورة من الصور منذ عهد نبوكدنصر • والكتب القديمة التى كانوا نقلوها الى الارمية فى عهد الدولة الرومانية المسيحية ، وفى مواضيع مختلفة _ كالرياضيات والفلكيات والبلدان والحيوان والنبات والكيمياء والمنطق _ نقلوها أيضا الى العربية فى عهد الخلفاء العباسيين وأخذ المسلمون يُجلون ارسطو الفيلسوف الذى لا يصدق هذا الاسم الا عليه ، كما كانوا يجلون محمداً نبياً ، وأكبوا على دراسته فى الاراضى الاسلامية من آسية الوسطى الى الاقيانوس الاتلنتيكى _ ولعلهم فهموه فى بلخ وسمرقند أحسن مما فهمه الدارسون له فى اوربة فى ذلك العهد • والخواطر التى بدت لهم من مطالعة الكتب اليونانية انتجت آدابا علمية وفلسفية عربية فاقت كل آداب سواها كانت تعرف يومئذ فى الغرب ، فكانت أقرب بمزاياها الى ما نسميه اليوم الميل الى رأى العقليين الفطريين والى رأى « الغرب » الحديث • وأغلب هذه الآداب لم تكن نتاج اناس من عنصر عربى على ما أسلفنا الكلام ، بل نتاج أفكار السريان وأفكار المنتسبين الى العنصر الفارسى القديم المعروف فى تلك الديار الذى أصبح لسانه عربياً بعد ذلك العهد • ولهذا يصدق بعد هذا الايضاح أن يقال ان فتوحات العرب لسورية وديار العجم لم تعن أبداً قتل حياة أهاليها الفكرية بل ولا قمعها • نعم ان أصحاب الملك وان كانوا عرباً ، والديانة الاسلامية وان كانت عربية المحتد ، فان الهمة لتلقي العلوم العربية لم تضمحل بل انتقلت الى ديار اخرى •

ففى القرن الحادى عشر كان ابن سينا يوغل فى أبحاثه العلمية فى

خزائن كتب بخارى وكان البيرونى ينعم النظر فى ثقل المعادن النوعى فى « خيوا » • فالفكر الفلسفى الذى انتجه اليونان أثّر كل التأثير على فلسفة الاسلام المنقولة خلفاً عن سلفٍ على حد ما جرى في الغرب من فعل معتقد الكنيسة المسيحية ، وكذلك ما جرى فى الشرق اذ نتجت مقالات دينيـــة مختلفة •

وفى القرن التاسع والعاشر تقدم الشـرق الاسـلامى فى العلم العقلي الفطري تقدماً لم يصله الغرب المسيحي الا بعد « النهضة » مع ان نشاطهما كان واحداً فما الذي حدث فى هذه القرون المتأخـرة حتى ان الغرب بقي سائراً في وجههِ ، واخذ الشرق يسير القهقرى حتى قارب الاضمحلال بل اظهر عدم كفاءته للرقي الذي صار اليه ؟

فلا جرم ان لذلك عدة أسباب تضافرت على ابراز هذه النتيجة • ومما يجدر الانتباه اليه ان انحطاط الشرق لم يبدأ الا بعـد قدوم المغول والترك اليه ، فقد بقيت آسية الوسطى تقذف كالبركان على الاقطار المتمدنة الشرقية سيولاً جديدة من الهمج يغزونها بجماعات غزيرة حتى انها نغّصت عيشة سكان تلك الربوع، وانهكت قواهم ، ولم يكن لهم حظ ليعودوا الىالشفاء • اما في اوربة فانها كانت بعيدة عنهم غاية البعد وما بقي من حضارة الاقدمين فيها التحم بالديانة النصرانية ولم يبق فى مكنة الهمج او البرابرة ان يوذوا اهاليها لان النصرانيـة من القوة ما كان يغير حـالة اولئك الاقوام المتوحشة فتصيرهم مع الزمان قابلين للتهذيب • والسيول الجـديدة الجـارفة المنحدرة من آسية الوسطى مثـل التتر الذين هجموا عـلى روسية والترك الذين لم يصلوا الا جنوب شرقى اوربة ولم يتجاوزوا أسوار ڤينة فانها تركت أغلب قسم أوربة يتنعّم بالعمران الجديد اليوناني المسيحي ويُتم تقدمه فيه بسـلام واطمئنان • واما في ارض الفراتين فكان الامر بالعكس فان غزوات هولاكو

وتيمور لنك أضرت بها اضراراً بالغة لا تنسى ( أخذ هولاكو بغداد فى سنة ١٢٥٨ واخذها تيمورلنك سنة ١٣٩٨ ) وقد فتك هذان السفّاحان فتكاً ذريعاً بالاهالي وأفنيا القسم الاعظم منها • ولقد صَحِبْنَا مسير امم هذه الديار مدة الوف من السنين ورأيناهم محافظين على ما اتصل اليهم من السلف من امر التمدن والحضارة بنوع لم يثلموا منه شيئاً على تمادى الاعصار ولقد اتصل اليهم من زمنٍ الى زمنٍ آخر عناصر حياة من الخارج والدم الذي كان يجري فى عروقهم متحدّراً من عروق الشُمَّريين والاكديين امتزج بدم السوريين ثم امتزج امتزاجاً غير يسير بدم اليونان والعرب • ولقد رأيناهم ايضا أبدلوا لغتهم غير مرة كما ابدلوا ديانتهم بل واسم ارضهم ايضا ولقد رأينا رؤساء مختلفين غرباء يسودونهم ويدبرون امرهم • وكل ذلك لم يتعد هذه الامور وبقيت ارض الفراتين حافلة بسكانها واهاليها • اما الآن فان تاريخنا قارب النهاية ولم نعد نرى فيها من الخلق المزدحم كما فى السابق وما بقي منهم فرّ الى الجبال المجاورة ومنهم من بقي فى مدن مقلوبة ظهراً لبطن وكلها انقاض وبقي اولئك الناس فى حالهم تلك التعسة حتى انسل اليهم العرب من الخارج فتغلبوا على من فيها فابتلع العنصر العربي العنصر الوطني الباقي • وثلاثة ارباع الارض التي كانت قد مُصِّرَتْ ومُدِّنت وعُمِّرت ، انقلبت الى صحاري او مستنقعات ولم يبق فيها من يحرثها ويزرعها • وما عدا بعض مدن حقيرة وقطع ارضٍ حافظت على ضرب من الحضارة كان الباقي منها ارضاً قفراً ، اللهم الاّ بعض قبائل بدوية او متحضرة كانت تعيش في بواديها • ومن ينظر تلك الربوع يخل ان أغلبها عاد الى الحالة الفِطريّة التي كانت عليها قبل الوف من السنين اي قبل ان يحفُر أنهارها الشمريون والاكديون • اما الآن فليس الا تلال حيث كانت مدن زاهرة زاهية ، او كانت ابراج تناغي السماء مبنية على ضفتي دجلة التي لا تزال مياهه تهوي

من الهضاب الشمالية ولم يبق فى جهة طيسفون الا أطلال دارسة متسعة قائمة هناك منفردة وكانت سابقاً قصر ملوك فارس •

هذه هى الحالة التي كانت عليها أرض جنات آسية فى هذه القرون الاخيرة فى عهد الامارة التركية والذين رأوها وتذكروا سابق مجدها وسامق عزها قضوا عليها قضاء شقاء نسبوه الى تلك الحكومة التى اشتهرت بفسادها وانحلال رابطتها وباهمالها للبلاد بدون انكار لما فيها من الغش والخداع وموت الهمة • ولعل هذه المساوىء ملازمة لها ملازمة الظل لصاحبه وأصبحت لها من الامراض العضالة • ولو كانت يَدٌ اوربية بدلاً من يد تورانية قبضت على بلاد الفراتين فى مدة هذه العصور الاخيرة لما رأيناها فى هذه الحالة المنكرة التى نراها عليها اليوم • ولهذا يحسن بالمرء ان يتذكر ان الحكومة التركية لو كانت عقدت النية عقداً صادقاً على تحسين شؤون الجزيرة واعادتها الى حالة خصبها القديم ، لما نقصتها الوسائل البتة ولسهل عليها اعادة كرى الانهر القديمة ، ولكثرت الايدى فى حرث أراضيها وزرعها وحصدها • فلقد كان أهالى أرض شنعار فى سابق العهد على ما يظن ( اذا لم يرد الانسان أن يقايسها على أرض النيل ) نحو سبعة ملايين • أما الآن فاذا أردنا ان نبالغ بالعدد نقول لا يسكنها الا نحو مليون ونصف • ومسألة نقصان الاهالي من هذه الديار مسألة بينة — وهى الآن بيننا وبين رؤية ديار بابل مجددة تعاد فيها الانهر الى حالتها السابقة لكنها تتطلب أشغالاً عظيمة يقوم بها رجال عديدون وحينئذ تعود الى ما كانت عليه من أمر بساتينها التى كانت تضارع جنان الفردوس • فيزدحم فى طرقها التجار من جميع ديار الله ويستبضعون ما يشاؤون •

**انتهى**

# فهــارس الاعــلام والامكنة

## - ت -



## - ث -



## - ج -



## - ح -



## - خ -

## - ق -



## - ك -



## - ل -



## - م -

# فهرس المواضيع

# THE LAND OF THE TWO RIVERS


BY

*EDWYN BEVAN*

TRANSLATED INTO ARABIC

BY

*R. P. ANASTASE - MARIE de St-Elie*

AND

*R. P. LOUIS MARTIN*

EDITED BY

*HIKMAT TOMASHI*



Al-Ma'arif Press, Baghdad

1961